رحلة حنظلة

سعدالله ونّوس

رحلة حنظلة

مسرحية

دار الآداب ـ بيروت

رحلة حنظلة

سعدالله ونّوس/مسرحي سوري

الطبعة الأولى عام 1990

الطبعة الثانية عام 2004

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

(تتدلى من سقف المسرح حلقة معدنية واسعة. يمكن أن تتحرك في فضاء المسرح جيئة وذهاباً، ويتغير توظيفها بين مشهد وآخر. في طرف قصي دكّة خشبية يقف حنظلة إلى جوارها متهدِّل الهيئة. حرفوش يتأرجح على الحلقة المعدنية مرحاً وعابثاً..)

حرفوش : **(كالمعلنين عن ألعاب الحواة، وهو يروح ويجيء داخل الحلقة)** بؤس وتعاسة.. انظروا أيها السيدات والسادة. هذا الرجل الضامر سيكون بطل السهرة. لا تشعروا بالخيبة، فقد ولى عهد الأبطال العمالقة. لكل مرحلة شخصيتها، وهذا الرجل الضامر **(تزداد لهجته إعلانية)** هو شخصية هذه المرحلة.

(يقفز بحركة خفيفة من الحلقة، ويقترب من حنظلة).

حرفوش : الاسم.

حنظلة : حنظلة..

حرفوش : اسم الأب..

حنظلة : حامد الحنظلي..

حرفوش : اسم الأم..

حنظلة : زنوب الصفراوي..

حرفوش : مكان وتاريخ الولادة.

حنظلة : الدرويشية وسنة الميلاد ضائعة.

حرفوش : الوضع العائلي . .

حنظلة : متزوج بلا ضنى . .

حرفوش : المهنة .

حنظلة : عداد فراطة في بنك الازدهار والعمارة .

حرفوش : الزمرة الدموية . .

حنظلة : سالبة . . .

حرفوش : المبدأ . .

حنظلة : المبدأ؟؟

حرفوش : ما هو مبدأك في الحياة؟

حنظلة : امشِ الحيط الحيط وقل يا ربي السترة . . .

حرفوش : (متسارع اللهجة) المبدأ . . . . ؟

حنظلة : خبىء قرشك الأبيض ليومك الأسود .

حرفوش : المبدأ؟ . .

حنظلة : بينك وبين الجار سمِّك الجدار . .

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : الطاقة التي يأتيك منها الريح سدَّها واستريح . .

(أثناء الحوار السابق . يدخل ممثل فيقيد رجل حنظلة بسلسلة مثبتة بالأرض . ثم يدفع أمامه حاجزاً من القضبان هو جدار الزنزانة . مع آخر عبارة في تقديم الشخصية يضطجع حنظلة على الدكّة الخشبية ويتدثر بغطاء ممزق أُشبه بالخرق . . يخفت عليه الضوء . . ويغرق في النوم . . .) .

حرفوش : **(وهو يرتد عنه . يقفز بخفة مواجهاً الجمهور . .)** بؤس وتعاسة . . هذا هو طالع صاحبنا حنظلة . يعيش الآن في محنة . وستشتد عليه المحن ، وتزيد . . إنه لا يعرف سبب مصائبه ، ولا يدرك سر محنته . إذن عليه أن يتحمل العذاب

فوق العذاب ، وأن يمشي طويلاً على درب الآلام . لا أحب الشماتة كما لا أحب الشفقة . أن يكون المرء أعمى هذا شيء . وأن تكون له عينان سليمتان ولا يبصر فهذا شيء آخر . لكن لنبدأ القصة من أولها . .

(لهجة إعلانية) أول القصة في السجن .

في السجن

(حنظلة متمدد على الدكة ونائم. بين حين وآخر ينتفض زافراً أو متنهداً. يأتي الشرطي، يفتح باب الزنزانة محدثاً ضجة معدنية صاخبة. يدخل وهو يهز هراوته).

الشرطي : ما شاء الله.. ما شاء الله.. السيد لا يصحو قبل الضحى.. كان ينبغي أن أحضر معي فرقة الموسيقا. هيا أيتها الفأرة.. اضغط على عجيزتك وانهض.. (مشيراً إلى قطعة الخبز اليابس وقصعة الحساء) ألا يعجبك طعامنا! سأرش عليه قليلاً من التوابل كي يصبح أشهى.

(يبصق في الصحن، يعلو النفور وجه حنظلة، ويغمض عينيه)

لا تقلب سحنتك. كل المساجين يعرفون جودة توابلي. يا الله. انهض قبل أن أسحق رأسك بكعب الجزمة. (يرتعد حنظلة، ينهض مضطرباً. يرتدي سروالاً وسخاً، ضيقاً. وفوقه صديري من الجوخ القديم.. في إحدى قدميه جورب. أما الثانية فعارية ومقيدة بالسلسلة المعدنية..)

حنظلة : بحق الله لا تغضب. لم يغمض لي جفن. أمضيت الليل في عدِّ الأيام. تصور.. أنا عدَّاد الفراطة الذي لم يخطىء مرة، لم أستطع أن أحسب كم يوماً مرّ عليّ هنا. أقول كان ذلك يوم الجمعة. أوقفوني وقطع السيد الحارس حزامي

وهو يجلدني، ثم أنتقل إلى السبت، فيختلط في رأسي أكثر من سبت. أعود إلى البداية وأقول كان ذلك يوم الجمعة، أوقفوني.

الشرطي : (مقاطعاً بغضب) أوقف، وإلاّ أوقفتك في دار الأموات. في هذا المكان أنفع لك أن تعد القمل في رأسك، وتترك الأيام تنساك.

حنظلة : أما آن أن تشملني الرحمة. لم أرتكب أيَّ شيء. لا جرماً ولا خطيئة. ومع هذا أوقفوني ذات صباح، ثم قادوني إلى السجن ورموني في ظلمته.

الشرطي : لو لم ترتكب جرماً أو شبهة ما كنا حبسناك. في السجن لا يوجد أبرياء.

حنظلة : ومع هذا صدقني أيها السيد أني بريء. كنت وما أزال رجلاً لا أقرب الخمرة، وأطيع كل ما تأمر به الحكومة.

الشرطي : ما نعرفه عنك يكذب ما تدّعيه. من يدري أي مخطط كنت تنوي.. انسللت عبر الشوارع الخلفية، وحين قبضنا عليك متلبساً بدأت تنوح متظاهراً بالبراءة.

حنظلة : أنا.! لا شك أني ضحية خطأ رهيب. لعلهم يريدون شخصاً آخر. هذا هو الأمر. بالتأكيد كانوا يريدون شخصاً آخر. إنك لا تعرفني أيها السيد. بعد عودتي من العمل لا أغادر أبداً دفء بيتي وزوجتي. من البيت إلى العمل. ومن العمل إلى البيت. هذا هو نظامي أكان الفصل ربيعاً أم خريفاً، صيفاً أم شتاءً.

الشرطي : ونظامنا أيضاً لا يتغير مهما تغيرت الفصول. ما دمت في

السجن فأنت مذنب. وما دمت مذنباً فإن القانون يقضي أن تكون في السجن. هذا هو نظامنا. شرحته لك مراراً، لكن يبدو أنك لا تفهم إلا شرح السوط.

حنظلة : أرجوك أيها السيد أن تساعدني.

الشرطي : وكيف تريد أن أساعدك.. هل أضع لك خطة للهرب، أم أتبنى جرائمك المدونة في المحاضر والسجلات؟..

حنظلة : عندي وفر صغير وضعته في البنك من أجل المرض أو يوم الشدة. لا يعرف المرء ماذا تخبىء الأيام.

الشرطي : احذر فأنت تضيف إلى سجلّك الحافل جريمة جديدة.

حنظلة : (خائفاً ومرتبكاً) ماذا فعلت؟..

الشرطي : إنك تلوّح بالرشوة، وتحاول إفساد موظف حكومي شريف.

حنظلة : ولكن ألم تقل لي؟ (لحظة) نعم.. أنت نفسك قلت لي.. من يفتح كيسه يجد من يعينه!

الشرطي : ألأنا قلت ذلك؟!

حنظلة : الكلمات ما زالت ترن في أذني. منذ سمعتها وأنا أقلّبها ظهراً وبطناً. كنت آمل أن تلحظني العدالة، دون التفريط بنقودي. لكن الأيام تمضي، وربما كانت العدالة مشغولة عني. لهذا قررت أن أفتح كيسي.

الشرطي : وأخيراً جاءتك نصيحتي، لا بأس. إلا أني أصارحك منذ البداية. إذا لم يكن الكيس ثقيلاً، فإن أحداً لا يستطيع أن يفعل لك شيئاً.

حنظلة : هو وفر صغير جمعته بالليرة والليرتين. كان اقتطاع لحمي أسهل عليّ من تبديد قرش منه.

الشرطي : لا أدري كم هو وفرك. لكن في مثل قضيتك ينبغي ألا يكون أقل من عشرة آلاف.

حنظلة : (مبهوتاً) عشرة آلاف..

الشرطي : أتجد المبلغ كبيراً؟

حنظلة : (مواصلاً بهوته) هل قلت عشرة آلاف؟

الشرطي : لا تحسب أني سأضعها في جيبي. ما أنا إلا واسطة خير. آخذها منك لأدسها في جيوب الآخرين.

حنظلة : (ساهماً) قتّرت على نفسي طوال سنوات كي أجمع وفراً صغيراً. وعليّ الآن تبديده في لحظة. أليس الحق أن أطلب تعويضاً عما لحق بي دون ذنب بدلاً من أن أدفع كل ما أملك.

الشرطي : لن يصغي إليك أحد مهما شكوت أو تذمرت. في حالتك لا فائدة من التردد.

حنظلة : (بحزم) أقصى ما أستطيع أن أدفعه هو ستة آلاف.

الشرطي : هيا أيها الجربوع.. إنهم ينتظرونك في غرفة التحقيق.

حنظلة : (مرتاعاً) غرفة التحقيق.. أرجوك.. سأدفع سبعة آلاف.

الشرطي : لا تستنفد صبري.

حنظلة : ما تطلبه يخرب البيت. إنك تدمرني أيها السيد.

الشرطي : خبىء دموعك للتحقيق. هيا.. إنّ وقت الحكومة ثمين.

حنظلة : سأدفع ثمانية آلاف.. إنه كل وفري تقريباً.

الشرطي : ثمانية آلاف.. لا أدري لماذا يرقُّ قلبي لـك. طبعاً أنت لا تعرف العملية المعقدة التي يحتاجها الإفراج عنـك. عليّ أن أبـدل السجلات، وأن أجـد مشبوهـاً يحل مكـانك. ولكي أفعل ذلك ينبغي أن ندس شيئاً في جيوب الجميع.
(يخرج ورقة من جيبه ويكتب الصك).

حنظلة : ألا يمكن الإفراج عن بريء إلا إذا قبضتم على واحد آخر.

الشرطي : في أنـظمتنا لا يجـوز أن تكون في السجـون أماكن شـاغرة. شعارنا اعتقل الشبهة ولا تواجه فتنـة. يا الله.. وقِّـع هنا، وإياك أن تلعب معي لعبة فيها التواء.

حنظلة : **(وهو يوقع)** عمري ما عرفت الـدروب الملتوية، ولا سرت عليها.

الشرطي : **(وهو يخرج)** طيب.. سنرى ماذا يمكن أن نفعل..

حنظلة : **(بعـد فترة)** لـماذا يحدث لي مـا يحدث؟ مـا الذي يـربط هذه الأمـور بعضها ببعض؟ الشقـاء يهـدّني والغمـوض يتجـاوز مداركي. فكيف أجد مخـرجاً من هـذا الدرب المسـدود.. **(يحلق في الفـراغ ببـلادة وحـين تعلو ضجـة المـزلاج، يقفـز خائفاً.. يدخل الحارس وهو يحمل بقجة مهلهلة).**

الحارس : المـدعو حنـظلة الحنـظلي. هـل أنت المتهم المسمى أعـلاه، والذي نودي عليه الآن.

حنظلة : إني هو بالذات. وأقسم مجدداً إني بريء.

الحارس : أنت بـريء، ومـع هـذا تـأتي إلى السجن وتقيم فيـه دون حياء.

حنظلة : تماماً أيها السيد الحارس. لقد انتزعوني دون حيـاء من دفء بيتي وزوجتي.

الحارس : وهل تظن أن الدولة تبني السجون كي تقدم المأوى والعلف لـلأبريـاء.. بعد أن تبـين بالأدلـة أنك بـريء فـإن مـديـر السجن يأمر أن تـدفع تكـاليف إقامتـك هنا. **(حنـظلة يفتح فمه إلى أقصاه، وتجمد النظرة في عينيه. يحاول الكـلام. يتحرك لسـانـه دون صـوت..)** حسبنـا المبيت عـلى سعـر الفنـادق المتـوسطة. ثم أضفنـا إليه ثمن الـوجبات الثـلاث. فكـان الحسـاب أربعمائـة وأربعاً وستـين ليرة. **(يحـاول الحـارس أن يطبق فمه، ينطبق الفكان على اللسان، يصرخ حنظلة متوجعاً، وينهار راكعاً على الأرض بحركات سريعة وشبـه كاريكـاتيريـة، يفـك الحارس بقجـة الأمتعة الشخصيـة.. يساعـد حنظلة عـلى ارتـداء ملابسـه. يفرغ مـا في محفظة نقـوده، ويضعه في جيبـه. ثياب حنظلة مضحكة. البنطلون واسع جداً والحزام مقطّع. أما الحذاء فإنـه ضخم بصورة كـاريكاتـورية.. يخـرج الحارس.. يتبعه حنظلة متأبطاً حذاءه، فيتعثر، ويندفع من الباب).**

في الهواء الطلق

(يبدو حنظلة ممدداً على الأرض في طرف المسرح، حذاؤه الغليظ مبعثر إلى جواره. يدخل حرفوش بخفة . . يجلس على الحلقة المدنية متأرجحاً وكأنه يلهو).

حرفوش : وخرج صاحبنا من السجن دجاجة منتوفة. هل نواسيه؟ لا ريب أن شيئاً من العطف والحنان يسعفه قليلاً. لكن ما يسعفه أكثر، هو أن يعرف أكثر. إذن لا تظنوا بي السوء لو أبديت نحوه بعض الخشونة. أصبح حنظلة خارج السجن والمشهد الآن يدور في الهواء الطلق. . .

(يتزحلق حرفوش عن الحلقة، يتربع وكأنه جالس على بساط من العشب. يتناول من كيس شطيرة ويلتهمها ببطء، وتلذذ. في الوقت نفسه ينهض حنظلة متلملماً. . يبحث عن فردتي حذائه يجمعهما ويحملهما تحت إبطه. ينزلق بنطلونه، يصاب بالخجل، ويمد يديه بسرعة ليرفعه وهو يتطلع حوله. الحذاء يتبعثر. يجمعه من جديد. . يتأبطه وباليد الأخرى يحاول أن يمسك بنطلونه).

حنظلة : آه. . لقد أتلف الحارث حزامي الذي كنت أعتز به.

(بعد بضع خطوات متأرجحة يلمح حرفوش. يرتبك وهو يرفع بنطلونه فيسقط الحذاء. . يجلس قريباً منه ويبدأ في تأمل حزامه المقطع. . حرفوش لا يعيره أدنى اهتمام).

حنظلة : (وهو ينقل بصره بين حرفوش والحزام. .) تصور أيها

السيد. . (يستدرك) اسمي حنظلة. هذا الحزام اشتريته يوم زواجي. إنه جلد أصلي. لكن حارس السجن قطّعه وهو يسوطني به.

حرفوش : من لا يملك حزاماً، لا يستطيع أن يستر مؤخرته.

حنظلة : كنت أعتز به. أحس أنه يجمعني ويحزم لي وسطي.

حرفوش : والآن إما أن تزحف على مؤخرتك، أو تعرضها للمارة.

حنظلة : آه لو تعلم ماذا جرى لي أيها السيد!

حرفوش : تعطلت دواليب عقلك، وانحلت براغيه.

حنظلة : لا. . بل كنت أتنزه في الشارع (حرفوش يدير ظهره له باستخفاف) لا أحد يريد أن يصغي إليّ. الأفضل أن أسرع إلى بيتي وزوجتي.

(ينهض، ويحاول أن يلبس حذاءه وهو واقف. ينزلق بنطلونه. يتعثر ويعود فيجلس على الأرض. يحاول أن يلبس الحذاء وهو جالس. يخلط بين الفردة اليسرى واليمنى مرات عديدة. ثم يبدو وكأنه في غمار عملية شاقة. وقد اختلط عليه الأمر، بينما يرمقه حرفوش مخالساً النظر، وهو يهز رأسه باستخفاف يمتزج فيه الاحتقار. . .)

حنظلة : (تلتقي عيناه بعيني حرفوش، يرتبك أكثر) أن ألبس حذائي كانت دائماً عملية شاقة. فأنا أتساءل مثلاً لماذا يكون للقدم اليسرى الأولوية، ومن يضمن، أن اليمنى ستتبعها دون اعتراض؟

حرفوش : وإذا قلبت المسألة، وبدأت باليمنى، فمن يضمن أن اليسرى لن تحرن في اللحظة المناسبة؟

حنظلة : ومما يزيد الأمر صعوبة أننا بحاجة إلى قدمين اثنتين كي نمشي.

حرفوش : (متصنعاً جدية بالغة) حقاً، إنها تجربة قاسية ومغامرة جريئة أن يقرر المرء كيف يمشي..

حنظلة : (وهو يتابعه مندهشاً، ثم جذلاً) أليس كذلك أيها السيد..؟ وأخيراً.. هو ذا رجل يمكن التفاهم معه. إنك تشجعني على متابعة قصتي. ما جرى لي يستحق أن يُروى. إني ضحية ظلم لا مثيل له..

حرفوش : لا ضحية بلا جلاد ولا جلاد بلا ضحية.

حنظلة : (ينشده ببلاهة. ثم يتابع بعد لحظة) كنت أتنزه مستمتعاً بأشعة الشمس. تركت شارعاً وانعطفت إلى شارع آخر. فدهمني عدد من رجال الشرطة وهم يصرخون. هو ذا الرجل الذي نبحث عنه. انقضّوا عليّ وأمسكوا بي. تصور أيها السيد حالي.

حرفوش : الجلاد يعرف دائماً ضحيته، لكن الضحية لا تعرف دائماً الجلاد.

حنظلة : بعد أن تمالكت نفسي، قلت لهم أيها الموقّرون اسمي حنظلة. فأجابوني غاضبين: يا ابن القحبة سنجعلك تذوق ما هو أمرُّ من الحنظل. ماذا تفعل في هذا الشارع؟ أخبرتهم أني أمضي إلى الكشك لأشتري مجلة النجوم. فأنا وزوجتي نحب أن نقرأ ما تقوله الأبراج.

حرفوش : ما هو برجك؟

حنظلة : أنا.. الثور. وزوجتي العقرب. هذان البرجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش : ولم يمهلك رجال الشرطة حتى تقرأ ما تخبئه لك الأبراج؟

حنظلة : قلت لهم تركت امرأتي تعدّ القهوة في البيت، وسأعود حالما أشتري المجلة. فصرخوا بي: سنعرف كيف نكشف أكاذيبك وفي السجن يمكنك أن تفكر بفأرتك العاهرة كما يحلو لك. قل لي أيها السيد أهي عدالة أن يوقف رجل يستمتع بأشعة الشمس، ويتنزه في الشارع ببراءة؟

حرفوش : أية قصة مؤثرة! إلا أنها لم تؤثر في أكثر من مواء قطة شاردة. العدالة تنفر من الوجوه البالية الذليلة.. (ساخراً) ومن يدري ربما كانت سحنتك مجرد قناع للخداع. أعرف كثيرين يخفون خلف هذه الأقنعة. رغبات ضارية في التشرد والشغب.

حنظلة : أنا؟ إنك تغرُمُني أيها السيد وأمام تفاهمنا القلبي توصد الباب.. لقد وصفت لك حقيقة ما أصابني فهل تتكرم، وتتفهم وضعي؟..

حرفوش : هـ.. هـ.. أتظنني مربيتك.. إفطاري وأنهيته وطبيخ قصتك نسيته. أعلن نهاية اللقاء وسأبحث عن كأس ينسيني وجهك المنسول. قد نتلاقى مرة أخرى. اسمي العم حرفوش.. والآن وداعاً.

حنظلة : وأنا الذي ظننت العثور على صديق، ينفعه أيام الضيق. لا ينبغي أن أثق أبداً بغريب. المكان الوحيد الذي بقي لي هو حضن زوجتي الحبيبة. هناك سأجد العزاء والفرج بعد الشدة.

(يخرج حنظلة متعثراً، وقد انتعل حذاءه بالمقلوب. الفردة اليمنى بالقدم اليسرى، والفردة اليسرى بالقدم اليمنى).

في البيت

(يمكن أن يبدأ المشهد بلعبة بين ممثلين يتعاركان. أحدهما يصيح «ابعد عن الشر وغني له» والثاني يرد عليه «اللي من إيدُه الله يزيدُه». يمكن أن تكون الخصومة بين أكثر من ممثلين بحيث ينقلب المشهد تجاذباً بين مجموعتين متمايزتين. يبدأ المشهد إيمائياً بهلوانياً، ثم يعلو فيه الصخب. وحين يبلغ ذروته، يتدخل حرفوش ليسرد قصة أمه وأبيه. يتم تركيب ديكور المشهد التالي أثناء ذلك. أو مع رواية حرفوش).

حرفوش : (متأرجحاً) كان أبي وأمي رحمهما الله يحب أحدهما الآخر. لكنهما كانا يحبان المناكفة أكثر. وكان أعمق أسباب الخلاف بين أبي وأمي ما يمكن أن نسميه بلغة زمننا الخط العقائدي، أو الموقف الإيديولوجي. فقد كانت عقيدة أبي رحمه الله «ابعد عن الشر وغني له» وكانت أمي تتفانى في الدفاع عن مبدأ «اللي من إيدُه الله يزيدُه». طبعاً لم نكن نفهم ما يعني هذا المبدأ أو ذاك. في النهار تصرخ أمي كلما تعثر أحدنا أو تأذى «اللي من إيده الله يزيدُه». وفي الليل يلقننا أبي «ابعد عن الشر وغني له». ولكن ظهر يوم وأذكر اليوم كأنه البارحة، عاد أبي مهموماً إلى البيت. كان يعمل عتالاً في المطاحن. يذهب مع الفجر ولا يعود إلا مع غروب الشمس. وفور دخوله البيت بادرته أمي بالسؤال: لماذا تعود مبكراً؟.. فأجابها: لأنه لم يعد لدي عمل. ثم روى لها أن العتالين طالبوا أصحاب المطاحن بزيادة الأجور. ومع الأخذ والرد احتد الكلام. وتحول الأمر إلى فتنة أما أبي فقد فضل أن يبتعد عن الشر ويغني له، لكن عندما هدأت الخواطر وحصل اتفاق هاج عليه العتالون. ومنعوه من العمل معهم، أما أصحاب المطاحن فلم يهتموا به أو يحموه. ما إن روى أبي ما جرى حتى احتقن وجه أمي وصاحت بصوت مقهور: «اللي من إيدُه الله يزيده..» انفجر الأب بدوره. كلمة من هنا، وكلمة من هناك، ثم تشابكت الأيدي وبدأ الرفس والشتم والتكسير.. يومها بدأت أتبين على نحو غامض الفارق بين «ابعد عن الشر وغني له» و«اللي من إيده الله يزيده». ونعود إلى صاحبنا حنظلة. لا شك أنه وصل إلى بيته. وفي البيت يتوقع أن يجد امرأة تحضنه، وكلمة حنان تغسل آلامه (لهجة إعلانية) نحن الآن في بيت حنظلة.

(سرير. خزانة يمكن الاستعاضة عنها بالحلقة المدلاة. مكنسة. تجلس الزوجة في السرير. يسترها اللحاف حتى بطنها. تبرز أسفل السرير من تحت اللحاف قدمان كبيرتان، وبعيدتان عن المرأة. من الواضح أنهما قدما رجل مندس في الفراش. حنظلة يدخل متلهفاً، ومتعثر المشية. الزوجة تسحب اللحاف لكنها لا تبدي ارتباكاً ملحوظاً).

حنظلة : (لهجة أسيانة وحنانها صادق) أكاد لا أصدق أننا نلتقي ثانية. لم تبرحي خاطري لحظة واحدة. كنت أفكر فيك الليل والنهار. أتخيل شعرك، وجهك، نعومة أصابعك.. وكان ذلك عزائي الوحيد في المحنة التي ألَّمت بي.

الزوجة : تجعلني أذوب. ! وتخيلت شعري. !

حنظلة : **(فرحاً يجلس على طرف السرير، فتشيح عنه الزوجة بامتعاض)** نعم.. هذا الشعر الذي تمشطينه الآن.. أتخيل نعومته، وأدسّ يدي في خصّلاته.. **(يحاول أن يلامس شعرها، فتنحّي يده بفظاظة)**.

الزوجة : أبعد يدك النجسة.. لا أريد أن تلمسني. أنت تفلت على مزاجك، وأنا مصلوبة هنا أنتظر وحيدة وأشقى. هـ.. وفوق هذا يأتي ليسكب في أذني هذه الأغاني المائعة. وقاحة ما بعدها وقاحة.

(القدمان الباديتان تحت اللحاف تتفاركان بحركة خشنة.

حنظلة : لو تعرفين أين كنت طوال هذه المدة!

الزوجة : لم أدخل مرة إلى ماخور أو حانة ولكن أعرف ماذا يدور في المواخير والحانات.

حنظلة : **(مرتبكاً وكسيراً)** أتحسبين أني كنت.. : سامحك الله.. بعد كل هذه العشرة تتحدثين وكأنك لا تعرفينني. **(ينبعث من تحت اللحاف عطس مخنوق ترافقه اهتزازة. تعطس الزوجة بدورها لتصرف انتباه حنظلة، ثم تمسّد على اللحاف. يخرج حنظلة منديلاً من جيبه ويمسح أنف زوجته بحنان.. لحظة)** ما جرى لي يا زوجتي الغالية أخطر من أن يوصف. آه لو تعلمين ما جرعوني من العذاب، تصوري.. رموني في زنزانة أسوأ من جحر الفأر. وساطوني بحزامي الجلدي حتى تقطّع، ثم انتزعوا مني كل ما ادخرناه. ولو سألت عن السبب لما عرفت بماذا أجيب. كل ما أعرفه هو أن حزامي تقطع، وجلدي تهرأ ولم يبق معنا فلس واحد.

الزوجة : **(تدفعه بغضب. يباغَت حنظلة ويسقط عن حافة السرير)** ما كان ينقصني إلا هذه البشرى. تغيب عن البيت كالزعر.. تبعثر أموالي ثم تعود لتبيعني الأغاني والتباريح. هذا المسلك الشائن قد تطرب له أمك أما أنا فلن أمضي أبعد من ذلك. هذه الحياة يجب أن تتبدل وفي الحال. **(ينبعث من تحت الغطاء تجشؤ قوي. تضرب الزوجة على اللحاف، وتتجشأ هي الأخرى)**.

حنظلة : **(ما يزال يحاول النهوض والتماسك)** أنت رفيقة عمري. وتعرفين حياتي أكثر من أي شخص آخر. لم أتأخر يوماً عن وظيفتي، ولم أقصِّر أبداً في أداء واجبي. لا أطمع في تسلق المراتب، ولا يوغر صدري أن يكسب الآخرون أكثر مني. أدفع كل ما يترتب عليّ دون أية مماطلة. هذه حياتي مستقيمة كشارع الجلاء. ومع ذلك ها أنا أجد نفسي غارقاً في المصائب ولا أعرف لماذا؟..

الزوجة : هذا الخطاب يمكنك أن تبعثه إلى أبيك في الجحيم. لن تنطلي عليّ ألاعيبك بعد اليوم **(ينفجر من تحت الغطاء سعال. تكحُّ الزوجة وتتظاهر بالسعال. ثم تنسل من الفراش، قميص نومها طويل. أذياله تمس أرض الغرفة..)**أي قدر مشؤوم ربطني بك. !

(حنظلة يفغر فاه شارداً، وهو يتفحص القدمين البارزتين من تحت اللحاف).

حنظلة : **(بعد لحظة، ينقل بصره بسرعة إلى قدمي زوجته الواقفة أمامه، لا يرى شيئاً لأن المنامة تمس الأرض. لحظة انشداه)** هل فقدت قدميك؟..

الزوجة : (تكتشف القدمين البارزتين.. تجلس بسرعة على طرف السرير وهي تشد منامتها إلى الأرض.. بصوت بين النائح والغاضب) وهذه أيضاً! من شدة القهر كدت أنساها. كيف تريد ألا أفقد قدمي.. (تنهض وتتجه بخطى عرجاء نحو المكنسة..) تجمدتا من البرد وانكسرتا فوق السرير مثل قطع الجليد (في طريقها تسحب اللحاف، فتغطي القدمين يبرز وجه الرجل من الطرف الآخر.. يرمقه حنظلة بطرفة عين ثم يشيح بوجهه ويدير له ظهره..) طبعاً في غمرة المجون والعربدة، لم تحس موجة البرد التي مرت. (يخفي الرجل وجهه تحت الغطاء. فيلتفت حنظلة نحو السرير) هربت وتركتني بلا مال. ليس في البيت وقود. وثيابي الشتوية ممزقة، (تهدده بالمكنسة) ومع هذا تسأل متصنعاً براءة يوسف (تقلده) هل فقدت قدميك..؟.. لا.. أقولها لك بالصريح والفصيح، لا أعرفك ولا تعرفني، والأستر أن تنقلع فوراً من بيتي.. (يبرز الرجل رأسه من تحت الغطاء، فيخالسه حنظلة النظر، ثم يحوِّل عينيه بحركة سريعة وخائفة).

حنظلة : أريد أن أعيش حيث تعيشين. تلك هي القاعدة بين المتزوجين.

الزوجة : (تندفع نحوه بالمكنسة مهددة) نعمْ.. نعمْ.. هل يمكن الحديث عن الزواج والعش الزوجي، حين يهجر الرجل زوجته، ويبيت في مواخير الدعارة والمجون..!

(خلال كلام الزوجة، ينسل الرجل من الفراش إنه يرتدي كلسوناً، وقميصاً قصيراً مفكوك الأزرار. يسير على رؤوس أصابعه شاداً قميصه إلى الأسفل وملتفتاً بوجهه نحو حنظلة

الذي يقف الآن بشكل موارب. يصل الرجل إلى الخزانة، وحين يختفي وراءها، يلتفت حنظلة إليه).

حنظلة : غريب ما تسمعه أذناي.. وأغرب منه ما تراه عيناي. لا تبدو الأشياء في مكانها. وهذه الغرفة التي كانت ملجأي لم تعد كما ألفتها. ما الذي تغير؟..

(أثناء الكلام، يتجه بخطواته المتعثرة نحو الخزانة. تقفز الزوجة بعصبية، وتكنس حوله جاهدة في صرف انتباهه، ومنعه من الاقتراب من الخزانة. لكن حنظلة يتابع متسللاً خلف الخزانة. فيظهر الرجل أمامها. تجري هنا لعبة الدوران حول الخزانة في مطاردة هزلية، يتوضح خلالها أن حنظلة إما أعمى أو لا يريد أن يرى عشيق زوجته. بعد فترة ييأس فيها حنظلة من الدوران بلا طائل، يتجه نحو السرسر فتقفز إليه الزوجة وتمد قدميها من تحت اللحاف. ينحني حنظلة، ويحاول أن يرفع الغطاء).

الزوجة : أعرف ما تبحث عنه. لن ترقد تحت لحافي، ولن أدفِّئ عظامك الرخوة بعد اليوم. قلتها لك صريحة وفصيحة. ما بيننا انتهى.

(يزمجر الرجل، وينبح خلف الخزانة. ينتفض حنظلة. ويسقط على الأرض هلعاً).

حنظلة : لا.. لم تعد الغرفة هي الغرفة. الخزانة تهتز واللحاف ينهض.. كأن الغرفة تسكنها العفاريت. بحق الله. قولي لي.. ألم نكن هنا دائماً ومنذ سنوات..

(تبدي الزوجة حركات هستيرية، تقلب ملامح وجهها. وتهوم بيديها بينما يزمجر الرجل خلف الخزانة).

الزوجة : اسمعها، وافهمها. العصمة بيدي، والبيت باسمي، مسحتك من حياتي، وسحنتك الشبيهة بالفضلات لا

تـذكرني إلا بـالفضلات. في خـزانتي كلب غضوب وأنيـابه كالمقاصل. إذا لم تنقلع في الحال، سأجعله يطردك بعـد أن يمزق إليتيك (يزمجر الرجل).

حنظلة : (يقفـز مـذعـوراً) سـأرحـل فـوراً.. آه.. كـأن بي دواراً. الاضطراب يشوش رأسي، والفزع يخضّ معدتي. بـالتأكيـد لن أستطيع الاحتمال طويلاً. (يجرجر نفسه، مغـادراً الغرفـة) لا تريد أن تغفر لي، وترفض أن نعيش معاً كما في المـاضي. يقيناً أنه سريري. وتلك مخدتي، لكنها تطردني. ماذا فعلت لها؟ ماذا فعلت لهم لـماذا يحدث لي مـا يحدث؟ (بصـوت واحد ينفجر العشيق والزوجة، بقهقهة صاخبة.. يظهر حرفوش..).

حرفوش : تعاسة التعاسة.. الـزوجة لم تفتـح حضنها. والبيت طـرده وأغلق بابه. لكن حنظلة ما تزال لديه وظيفة. والأحزان لا تنسيه واجبه. اتجه متعثراً إلى عمله. سيعتـذر عن الغياب، ويستعيد وراء مكتبه ما يفتقد من الأمان..
(لهجة إعلانية) المشهد الآن في بنك الازدهار والعمارة...

عند المدير

(طـاولة يجلس وراءهـا مـديـر الـدائـرة. يبـدو منهمكـاً بعمله. مراجعة أوراق وتوقيع معاملات. يـدخل حنـظلة مرتبكـاً. يخرج من جيبه ساعة عتيقة ذات سلسال، ينفجر رنين منه. يضـطرب ويسرع بـإعادة السـاعة إلى جيبـه. يتقدم نحـو المـديـر، ويحييه باحترام متصنّع. المدير لا يعيره أي اهتمام).

حنظلة : أسعد الله أوقات سيدي المدير. ها أنـذا أعود، وأرجـو من صميم فؤادي ألا يكون غيابي قد سبب ارتباكـاً في العمل. لـو تعلم يا سيـدي المدير ما جـرى لي. رمـوني في السجن دون سبب. لقد أعلنت لهم أني موظف وأعمـل في مؤسسة محـترمـة هي بنـك الازدهـار والعـمارة. لكنهم انهالـوا علـيّ بالضرب والرفس، فلم أجرؤ على قول شيء.

المدير : عمَّ تتحـدث أيهـا السيـد؟ لا أذكـر أني رأيتــك من قبـل. ومغـامـراتـك البـوليسيـة لا تعنيني. أمـا إذا جئت تــطلب صـدقـه، فقـد أخـطأت العنــوان. هنـا بنــك وليس داراً للإحسان.

حنظلة : (يفتش في جيوبه محرجاً.. ثم يخرج بطاقة الاستخدام). يـا سيدي المـدير هـذه البـطاقـة تثبت أني مـوظف في هـذه المؤسسة. الاسم مدوَّن عليها، وكذلـك نوع العمـل. منذ

سنوات طويلة وأنا أعمل في هذا البنك عدّاد فراطة. أدخل هذا الباب في تمام الثامنة، ولا أخرج منه إلاّ بعد الثانية.

المدير : ذاك تاريخ قديم لا يمكن إثباته أو تذكره. عندما يترك المستخدم عمله دون إجازة، أو عذر مقبول يسرح من العمل، ويحل واحدٌ آخر محله. هذا كل شيء ولن ينفعك توسل أو احتجاج (ينصرف المدير عنه ويغرق في عمله).

حنظلة : يا سيدي المدير.. عمري ما قصرت في عملي. وأرجو أن تتذكر أنك امتدحتني. أي نعم.. أنت نفسك امتدحتني ثلاث مرات. وتأكد أني أتذكر هذه المرات كما أتذكر الأعياد والمناسبات الكبيرة. عمري ما ارتكبت خطأ في عملي، ولا تسربت هفوة إلى جداولي.

المدير : إنك تضيع وقتي. وقتي الآن ملك البنك. ووقت البنك ملك الدولة. ووقت الدولة.. أفّ بدأت أنرفز.

حنظلة : أرجوك يا سيدي المدير أن تقدر وضعي. ما ذنبي إذا كانوا قد اعتقلوني دون ذنب.. صحيح كان ينبغي أن أخبر عن غيابي الاضطراري، لكن أحداً لم يبال بالإصغاء إلي.

المدير : وهل تريد أن أضيِّع الدوام بالإصغاء إليك؟.. لا.. إنك تتجاوز كل الحدود.

حنظلة : أعدك أن أضاعف همتي وأؤدي عمل موظفين معاً.

المدير : الفراطة لا تحتاج إلاّ إلى موظف واحد، وأمثالك لا عمل لهم في هذه المؤسسة فانقلع من أمامي.

حنظلة : أتسلبني عملي، وترميني إلى الشارع؟..

المدير : لم يبق إلا أن تحرِّض الموظفين. وتبثّ دعاوى الشغب والتمرد.

حنظلة : لا أطلب إلاّ حقي..

المدير : حقك الوحيد هو أن تنقلع من هنا بالحسنى. لكن أمثالك لا ينفع معهم اللين (يرن جرس المكتب) إليَّ بالحارس. (يدخل الحارس) أمسك هذا الرجل من ياقته، وارمه مع القمامة في الشارع.

حنظلة : (مضطرباً وخائفاً) لا تغضب يا سيدي المدير.. لا تغضب.. سأخرج في الحال. أهذه مكافأة الأمانة إذن؟ أهذا هو تعويض الإخلاص في أداء الواجب؟..

في الهواء الطلق

حرفوش : (يحمل بيده مجلة النجوم).
كل الأبواب أُغلقت في وجه حنظلة. حقاً تحمَّل ما يكفي من الآلام، فهل نواسيه؟ قد يفيده المسكِّن قليلاً، لكن تشخيص الداء يفيده أكثر. نحن الآن في الحديقة.

(أثناء التقديم الماضي يوضع مقعد في حديقة.. ويتقدم حنظلة في حالة انهيار.. يصل إلى المقعد ويرتمي عليه. يلاعبه حرفوش ويسحب المقعد من تحته، فيقع على الأرض...).

حرفوش : **(وهو يتقدم منه لا مبالياً وساخراً)** أخطر ما يصيب السلحفاة هو أن تنقلب على ظهرها.

حنظلة : هذا ما يحدث. أهمُّ بالجلوس على مقعد، فينسحب من تحتي وأسقط. ما أفدح مصائبي!

حرفوش : أهي قاسية؟

حنظلة : تنهال على رأسي كضرب العصي.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده.

حنظلة : **(باكياً بطريقة مضحكة)** أردت أن أبوس قدمه، لكنه لم يصغِ إليّ... لم أتأخر يوماً ولو دقيقة. لم تبقع سجلي عقوبة أو ملاحظة. بعد عشر سنوات من العمل المتفاني، رموني كالذبابة إلى الشارع، وعيّنوا آخر غير مدرَّب مكاني.

حرفوش : قد يلائمك أن تتباهى. ما هي هذه الوظيفة التي تحتاج إلى المران والخبرة الطويلة؟

حنظلة : (مجروحاً) هل تستهين أيها السيد بوظيفة عداد الفراطة. إنها وظيفة حساسة وكلها مزالق. تأتي الأكياس الثقيلة المعبأة بمختلف القطع النقدية. فتتكدس على المكتب. أفتحها واحداً بعد الآخر وأنضِّد كل فئة على حدة. الأرباع، الأنصاف، الليرات، ثم أجمعها، وأسجلها في الدفاتر المنظمة. لا ينبغي أن تضيع قطعة، أو تتسرب من فئة إلى فئة. عمل شغفت به، وأصبح نصف حياتي. ولكن ما هي النتيجة؟..

حرفوش : لم تكن إلا برغياً في الآلة. والبرغي يمكن أن يبدَّل ببرغي. عملك يؤديه الآن رجل آخر. وهذا يعني أن من الممكن الاستغناء عنك واستبدالك.

حنظلة : عداد الفراطة برغي؟؟

حرفوش : أي نعم. ما هو إلّا برغي، وبرغي صغير جداً.

حنظلة : أنت تذبحني. ما أفدح مصائبي! ألا يمكن أن أجد شخصاً يتلطَّف معي قليلاً؟..

حرفوش : ألم يكن حضن امرأتك لطيفاً ودافئاً؟..

حنظلة : اه.. تلك هي أفدح المصائب.. كنت آمل أن أجد لديها الطمأنينة والراحة، لكنها استقبلتني بضربات المكنسة. طردتني من البيت، وفضلت أن تبقى تحت اللحاف الدافىء وحدها.

حرفوش : أمتأكد أنها بقيت وحدها؟؟

حنظلة : متأكد ومتيقن أنها كانت وحيدة في السرير، لا تصحبها إلا قدماها اللتان تجمدتا من البرد وسقطتا على الفراش. لم يكن في البيت نار فنفذ البرد إلى عظامها..

حرفوش : العقرب يلدغ، والثور يطول قرناه....

حنظلة : ماذا تعني؟ صحيح.. امرأتي من برج العقرب، وأنا من برج الثور وهما برجان أحدهما للآخر كالقدر وغطائه.

حرفوش : أما لاحظت أن القدمين لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصاً وكلسوناً، وفوق هذا تلعبان الاستغماية. طبعاً لم تشأ أن ترى، فأنت لا تدس أنفك فيما لا يعنيك.

حنظلة : **(ينتفض مهاناً)** ما هذا القول؟.. امرأتي عمرها ما كذبت عليّ، ولا فكرت بخيانتي.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده..

حنظلة : هل تريد أن أكذّب عيني وأتخيل أنه كان في البيت رجل... **(فجأة يمسك رأسه بديه ويطرق باكياً)**.

حرفوش : اللي من إيده الله يزيده..

حنظلة : ما كان أحلى تلك الأوقات التي نقضيها معاً.. أعود بعد إرهاق العمل إلى عشنا الناعم. ألبس بيجامتي وأسترخي على الكرسي الهزّاز. هي تقلّم أظافرها، أو تنتف الزغب عن ساقيها الملساوين، وأنا أقرأ لها مجلة النجوم وما تقوله الأبراج، ثم زادت لدينا المتع والمسرات بعد أن اشترينا المذياع.

حرفوش : الآخر لا يحتاج إلى بيجاما لكنه يجلس على كرسيك. ويريح رأسه على مخدتك. في البنك يمكن استبدال عداد الفراطة.. وفي البيت يمكن استبدال الزوج.

حنظله : **(كالطفل يبكي. ويفرك الأرض بقدميه)** آه.. لماذا يحدث لي ما يحدث؟ ماذا فعلت لهم؟ ألا يمكن أن أجد أي عون؟

حرفوش : لماذا لا تستشير النجوم؟ هل أقرأ لك ما يقوله برج الثور؟

حنظلة : **(بفرح حقيقي)** نعم.. نعم.. لا بد أن ذلك سينير لي بعض هذا الغموض الذي يلفّني.

حرفوش : **(وهو يقلب في المجلة)** الثور.. الثور. الحمل. الثور.. ها هو. هل تصغي؟

حنظلة : نعم..

حرفوش : **(يقرأ)** الثور.. وجع رأس أو أسنان سببه حالتك العصبية. عالج الأمر دون تأخير. يعرض عليك عمل إضافي فيه ربح وفير. من الجائز أن تندم على القبول به لشعورك بالإرهاق المفاجىء. لا تحمِّل نفسك أكثر من طاقتها. حيوية ونشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب. استمع لصوت قلبك وأعطِ من مالك بعض الشيء. نصيحتنا: اتبع حدسك فهو مرشدك ودليلك. يوم السعد الأحد رقم الحظ ١٠.

حنظلة : **(مبهوتاً)** عمل إضافي.. حيوية.. و..

حرفوش : نشاط كبيران في الحب. حافظ عليهما قدر محافظتك على الحبيب.

حنظله : وأعطِ من مالك..

حرفوش : بعض الشيء.

حنظلة : (باكياً) لا أملك أي مال. . أما أني مريض فهذا صحيح. لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء. أنا مريض ولا أستطيع أن أتحمَّل الأوجاع أكثر.

حرفوش : إذا كنت بالفعل مريضاً، فسأقودك إلى الطبيب مباشرة.

حنظلة : ليس لدي ما أدفعه للطبيب.

حرفوش : أعرف طبيباً مولعاً بالحالات المرضية النادرة وتشريح الجثث. ستتمدد على سرير العمليات. يفتح رأسك، ويغوص بمشارطه وأصابعه الماهرة حتى يصل إلى التجاويف المظلمة حيث يكمن الداء.

(ينكمش حنظلة مرتعباً. يتكوّم متشبثاً بالأرض بينما يحاول حرفوش أن يحمله على النهوض. في النهاية يرفعه ويجبره على السير).

حرفوش : لا تخف. عندما تخرج يده الماهرة من تلافيف دماغك ستحس فوراً أن حالتك صارت أفضل. إنه اختصاصي بارع واختصاصه هو الطب البسيكو ـ إعلامي.

حنظلة : البيكو. .

حرفوش : البسيكو. .

حنظلة : البسيكو. .

حرفوش : البسيكو ـ إعلامي.

حنظلة : (راضخاً) اللهم اجعله خيراً.

في عيادة الطبيب

(تزداد الحركة سرعة. والإيقاع له طابع أفلام الكرتون).

حرفوش : (معلناً) والآن نحن في عيادة الدكتور الاختصاصي في الطب البسيكو ـ إعلامي **(تدخل ممرضة بسرعة، وهي تدفع أمامها منصّة العمليات الجراحية. حرفوش يضع حنظلة على المنصة. ثم يتناول مريلة بيضاء معلقة على الحائط ويرتديها. يدخل الطبيب بمهابة. يضع نظارات طبية. ويرتدي ثياب جرَّاح يتأهب لإجراء عملية. الكمّامة المعقمة محلولة. وتتدلى أسفل ذقنه. الممرضة تمدد حنظلة على المنصة. وتسوّي وضعه. الطبيب يدور حوله وهو يمعن في التأمل. حرفوش يحذو حذوه، فيدور باتجاه معاكس. يمكن أن تحدث بعض المفارقات الحركية بين الطبيب وحرفوش والممرضة).**

حرفوش : هذا الزبون حالة مثيرة. معاينته قد تقود إلى كشف علمي جديد، وشفاؤه سيضيف إلى مآثرك واحدة أخرى.

الطبيب : **(وهو يتأمل حنظلة بإمعان أكثر)** الأعراض بادية. لا أشك أن الحالة مستعصية. لكن كلما استعصت الحالة، اتسعت آفاق البحث، واغتنت إمكانيات اختصاصنا الطبي. بفضل تنوع الحالات ودأب فريق من الأخصائيين مثلي، أحرز الطب البيسكو ـ إعلامي تقدماً خارقاً. بعض الأمراض التي كانت تعتبر وبائية وميؤوساً منها أصبح علاجها أسهل من الزكام.

(يتخذ الأداء طابع الإعلانات التلفزيونية والمظاهرات الإعلامية).

المرضة : الاكتئاب المزمن..

الطبيب : والإحباط الجنسي..

حرفوش : والشبق السياسي..

المرضة : والانقسامات الطبقية..

حرفوش : وحالات القلق الوطنية..

الطبيب : (وهو يباعد بين حرفوش والمرضة اللذين يهمّان بالعناق. حنظلة يضع وجهه بين يديه راكعاً فوق المنصة. يصغي إلى الحوار ذاهلاً) تلك مجرد عينة من الأمراض التي أصبح علاجها ميسوراً في عيادتنا. إن التقدم الذي أحرزه الطب البسيكو ـ إعلامي جعله واحداً من أهم أسس الاستقرار في المجتمعات المعاصرة.

حرفوش : وتدعيم الأنظمة القائمة..

(الحوار يتخذ طابع المظاهرة أو العراضة الشعبية.. حرفوش يتناوش مع المرضة، والطبيب يباعد بينهما).

الطبيب : من يساعد الفرد على التكيف مع واقعه؟

المرضة : إنه الطب البسيكو ـ إعلامي.

حرفوش : من يحوِّل المواطن وديعاً كالحمل صبوراً كالجمل؟

المرضة : إنه الطب البسيكو إعلامي..

حرفوش : من يجعل المواطن يتحمل القمع والفقر والفساد؟

المرضة : إنه الطب البيسكو إعلامي.

حرفوش : (تتسارع اللهجة) أزمات السكن والنقل والتموين..

المرضة : الطب البسيكو ـ إعلامي.

حرفوش : احتلال الطنب الكبرى والطنب الصغرى، وضياع فلسطين..

المرضة : الطب.

حرفوش : التجزئة..

المرضة : البسيكو..

حرفوش : الهزائم والمذابح..

المرضة : الطب البسيكو ـ إعلامي.

الطبيب : اختصاصنا، ولا أحب المباهاة، هو معجزة العصر..

المرضة : تقول آخر الإحصائيات الدولية إن هناك انخفاضاً ملحوظاً في نسبة الاضطرابات الاجتماعية، والانتفاضات الشعبية.

حرفوش : وارتفاعاً ملحوظاً في عدد حالات الجنون الفردية.

حنظلة : (وهو يرتعد) إني خائف..

الطبيب : الحديث عن منجزاتنا يطول. (ينزل حنظلة عن المنصة. إلى المرضة) مدديه على المنصة، وساعديه على الاسترخاء. (يخف حرفوش والمرضة، ويمسكان بحنظلة...).

حرفوش : أين تذهب؟..

حنظلة : لا أريد.. إني خائف.. دعوني أخرج.. (أثناء تمديده تحدث بعض المفارقات الحركية).

الطبيب : (يقترب من حنظلة متخذاً هيئة خطيرة ومتأملة.. بعد لحظات يعطي إشارة للمرضة) جو رقم ٠٠٣ معاينة. (تهرع المرضة

إلى لوحة أزرار. تضغط على زر. تتغير الاضاءة.. تضغط على زر آخر فتنبعث موسيقى. فترة، يحاول حرفوش خلالها أن يراقص الممرضة، أو يعاكسها).

الطبيب : (إشارة إلى الممرضة) تسجيل الأعراض الظاهرية. (تهرع الممرضة وتتناول سجلاً ضخماً، أو دفتراً صغيراً جداً في جيبها وتتهيأ للتسجيل) لون الجلد طيني، العينان دمعيتان، الأجفان اهتزازية، ملامح الوجه إنتانية. (يقترب من وجهه ويشمه) الرائحة عطن بولي. (إشارة من إصبعيه للممرضة.. فتسرع وتناوله مطرقة كبيرة. يصوبها الطبيب فوق الرأس.. تصطك أسنان حنظلة وتجحظ عيناه من الرعب، يلتفت الطبيب نحو الممرضة) نوبات اصطكاك أسنان. وجحوظ عينين. (ينقل المطرقة ببطء فوق حنظلة حتى تصبح فوق ركبته، يهوي على ركبته. فتندفع ساقه في الهواء وتصيب قدمه الطبيب الذي يتكىء على الممرضة، يحضنها ويسقط وإياها على الأرض. يساعدهما حرفوش على النهوض. الطبيب بهدوء) كبت مزمن والاستجابة العصبية موتورة. (يدور الطبيب عدة مرات حول المنصة، تتسارع الموسيقى بشكل واضح. فجأة يهجم على حنظلة، وبحركات متعاقبة وسريعة جداً، يمسك يده في حركة قياس النبض. يضع السماعة بحركات مضحكة على كل بقعةٍ في جسمه. إشارة للممرضة. تقلب حنظلة على ظهره. يتابع الفحص بالسماعة..)

حرفوش : هل بدأت تنجلي حالة صاحبي يا دكتور؟؟

الطبيب : هناك كتلة عصيانية في مكان ما..

حرفوش : أهي خطيرة؟

الطبيب : قد نجد الجراحة ضرورية.

حنظلة : (مرتعداً، يحاول النهوض. فتجلس الممرضة على رجليه) أرجوك أيها السيد الطبيب. كلمة الجراحة ترعبني. لا أريد أن تقطع شيئاً من جسمي المسكين.

الطبيب : افتح فمك.. ساعداني.

يمسك حرفوش والممرضة جذع حنظلة ورأسه، ويجبرانه على فتح فمه. يتناول الطبيب مصباحاً يوجهه إلى داخل الفم..

حرفوش : أيّ منظر... أيّ منظر؟..

الطبيب : (ينظر إليه بجدية) ماذا رأيت؟

حرفوش : قناة تبدأ مستقيمة، ثم تلتف وتلتف.. وفي نهايتها ثقب قذر. أهو الثقب الشرجي يا دكتور؟ (بحركة غريزية يحاول حنظلة أن يغطي مؤخرته بيديه).

الطبيب : الاحتمال وارد... (إلى حنظلة) قل آ..

حنظلة : أو..

الطبيب : أ..

حنظلة : أوو...

الطبيب : حقاً إنها حالة مستعصية (يعطي إشارة للمرضة) جو رقم ٥ معاينة الاستجابات الذهنية.

(تضغط الممرضة على أزرار جديدة. تتغير الموسيقى، وترقّ.. كذلك تتبدل الإضاءة، تصبح خافتة جداً، باستثناء البقعة التي يوجد فيها حنظلة.. الممرضة وحرفوش يساعدانه على الجلوس ويسندانه. صوت الطبيب في المشهد التالي، متكلف الرقة وأنثوي).

الطبيب : قل لنا مـاذا يمثل كـل رسم نعرضـه عليك الآن . . (**يعـطي إشارة البدء للممرضة فترفع اللوحة الأولى**) .

حنظلة : دائرة . .

الطبيب : قمر . .

(**ترفع الممرضة اللوحة الثانية**) .

حنظلة : نونية . .

الطبيب : تاج . .

حنظلة : (**اللوحة الثالثة**) سجن . .

الطبيب : سور حديقة . .

حنظلة : (**اللوحة الرابعة**)تنورة . .

الطبيب : أباجورة . .

حنظلة : (**اللوحة الخامسة**) سوط . .

الطبيب : حزام جلدي . .

حنظلة : (**اللوحة السادسة**) حمالة نهدين . .

الطبيب : نظارتان . .

حنظلة : (**اللوحة السابعة**) ثقب مفتاح . .

الطبيب : شجرة . .

حنظلة : (**اللوحة الثامنة**) دودة . .

الطبيب : عصا . .

(**تعود الممرضة فتعرض اللوحة الأولى**) .

حنظلة : (**مبدياً شطارة**) قمر . .

الطبيب : دائرة . (**بلهجة ظفر**) العلة واضحة . تشـوّش في الاستجابة الذهنية مع اختلاطات هذيانية .

حنظلة : (**محنقاً**) بالفعـل تبدو لي الأشيـاء مقلوبة أو مشـوهة . رأسي

طنجرة مليئة بالمصارين والنخالة . كيف أستطيع أن أفهم أو أرى بوضوح؟

الطبيب : من أعـراض العلة أيضاً الشعـور بالاضـطهـاد، والميـل إلى التذمر والاكتئاب . أعتقد أن الجـراحة ضروريـة ، وسننزع جذور العلة من هذا الـوعاء الثمـين (**إشارة للممـرضة**) جـو رقم تسعـة . . جراحـة دماغيـة . (**تبـدل الممـرضـة الموسيقى والإضاءة . الطبيب يتهيأ ويمد يده . تناوله مفتاحـاً ضخماً . يـدير المفتاح في رأس حنظلة محدثاً صريراً حاداً . يرفع غـطاء الرأس . تسرع الممرضة وحـرفوش للـنظر إلى الدمـاغ المفتوح، يصـطدم رأساهما . .**) .

الممرضة : آه الدماغ . ! أية معجزة . !

حرفوش : مفتوح أمامنا كصندوق تتكدس فيه الأسرار والغرائب . .

الطبيب : في هذا الصندوق، تتكدس أيضاً أتـربة وعـاديات مهـترئة . الغسيـل ضروري وإعادة تـرتيب التـلافيف سيمنـع تـراكم الغبار، وتقرحات الحزن . (**إشارة إلى الممرضة . تناولـه ملقطاً كبيراً، فيبدأ الطبيب في تحريكه داخل الـرأس . يضحك حنـظلة وكـأنه يـدغـدغ بعنف . ويـرفس بقـدميـه . يتعـاون حـرفـوش والممرضة على تثبيته**) سنجري عدداً من التنقلات بين المـراكز العصبية القيادية .

(**يستمـر في تحـريـك الملقط، بينـما تتسـارع الـموسيقى، إشـارة للممرضة . تتناول الملقط من يده، ثم تعطيه سكّرية . يرشّ منها قليلاً فوق الدماغ . يعيدها للممرضة فتناوله زجاجة فيها زيت . يصب قليلاً من الزيت داخل الرأس، بعدها يـرش بعض المواد الأخرى**) .

الطبيب : (بعد أن ينتهي يفرك راحتي يديه. بلهجة ظفر) بديعة هذه المهنة والأبدع أن تمارسها يد مجرِّبة. الدماغ بعد أن غسل وشُحِّم يعمل بدقة محرك جديد.

حرفوش : شيء سار أن يرى المرء كيف تتجدّد الأعضاء المعطوبة، وتدبّ فيها حياة ثانية (يغلق الطبيب رأس حنظلة الذي تتملكه نوبة من الضحك العصبي أو الهيستيري).

الطبيب : مهمتنا انتهت، وهذا الفرح الضاحك يثبت أنها نجحت.

حرفوش : كل الأعضاء المعطوبة جُدِّدت. وصديقنا حنظلة، سيجد السبيل إلى الهناء، كأنه سمكة أعيدت إلى الماء (إظلام).

في الهواء الطلق

(بعد قليل يظهر حرفوش متقدماً من الجمهور.. لم يظهر حنظلة بعد).

حرفوش : هل يستمر في غفلته طويلاً أم أنه يهتدي إلى الفهم قريباً؟! (يدخل حنظلة. هيئته غريبة. تأخذه نوبات من الضحك، وأحياناً يطوّح بيديه وساقيه في الهواء).

حنظلة : أين أنت يا صديقي؟ أشعر أن حالي غريب. يبدو أن مرضي تفاقم (يطوح بساقيه، ويديه. نوبة ضحك عصبي).

حرفوش : لا.. إنك تبالغ. لم تمض سوى دقائق على خروجنا من عيادة الطبيب الماهر. ألم تسمعه يقول بعد المعاينة الدقيقة والجراحة الناجحة إنك الآن معافى الجسم والعقل.

حنظلة : أيليق هذا الضحك بعد كل ما جرى لي! أولاً اعتقلوني في رابعة النهار، وثانياً سرقوا مالي دون تعويض، وثالثاً طردني المدير من عملي، ورابعاً بالت عليّ زوجتي.. وبدلاً من أن أبكي.. انظر.. إني لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك. هذا لا معنى له، إني أضحك على نفسي (يغرق في نوبة جديدة من الضحك).

حرفوش : (مصفقاً بيديه) بدأ يفكر.. بدأ يفكر..

حنظلة : (يتوقف فجأة عن الضحك. تتدلى شفته السفلى ببلاهة) أفكر... أنا أفكر..

حرفوش : العلاج يعطي مفعوله. دع عقلك الذي خرج لتوه من التنظيف، يحلق ويكشف ما خفي عليك.

حنظلة : (يتحسس رأسه، بالبلاهة نفسها) عقلي.. إنك تتلاعب بي. كل ما حولي معتم. ويصعب عليَّ تمييز الخيط الأبيض من الأسود.

حرفوش : ألا تشعر بأي تحسن؟..

حنظلة : بل ازداد حالي سوءاً. أحس أن أطرافي تنفك عن جسدي. (تباغته نوبة الضحك) وهذا الضحك أيضاً!

حرفوش : إنك تضحك على الأقل.

حنظلة : (بين الضحك والبكاء) مصيبة أخرى فوق مصائبي.. ألا يوجد واحد عنده حل لي؟

حرفوش : اسمع.. لدي فكرة...

حنظلة : نعم..

حرفوش : هناك درويش عرفت عنه كرامات كثيرة. يقال إن فراسته لا تخطىء. ومن أمارات الرجل يستطيع أن يميز طباعه، وينفذ إلى العلل التي تنخر الروح والبدن. درويش شديد الورع والتقوى. نافذ النظرة. تقام في زاويته الأذكار. ولا يضنُّ بالمعرفة على القصّاد. أعتقد أن زيارته ستنفعك. وقد تجد لديه الحل الذي تبحث عنه.

حنظلة : (بحبور وجذل. تتطوح أطرافه) ليتنا نذهب إليه على الفور... درويش ورع وله كرامات، سيعرف حتماً كيف يدلني على الصواب.

حرفوش : إذن، سأصحبك إليه.

حنظلة : (تكسو البلاهة وجهه) اللهم انفعنا ببركته.

حرفوش : (بصوت إعلاني، وهو يمسك حنظلة من يده ويجره) عند الدرويش صاحب الكرامات.

عند الدرويش

(ظلام. . تنفجر أغاني المولوية. . بعد فترة تكفي لوضع قطع الإكسسوار وتجهيز زاوية الدرويش. . تبدأ حزمة من الضوء تتناثر على الدرويش الذي يجلس على ما يشبه المصطبة. حوله جوّ دينيٌّ يعبق بالبخور. . بيده مسبحة ضخمة جداً تتدحرج حباتها على الأرض. طاسة ماء. دواة وريشة لكتابة الرقي والتعاويذ. لوحات شعبية عن الخرافات الدينية. يقف حنظلة أمامه منحنياً بخشوع. بينما يقف حرفوش على مبعدة منه، يقوم بين حين وآخر بحركات ساخرة).

حنظلة : يا سيدي الدرويش اسمي حنظلة.

الدرويش : الاسم في السماء، وسبحان من يمتحن عباده بالمحن، ويبلوهم بالبلاء.

حنظلة : ما أنا إلا عبد مؤمن. وفي حياتي لم أسلك إلا طريق الاستقامة.

الدرويش : لا تتباهَ يا عبد الله، فإنه لا يحب الذين يتباهون.

حنظلة : اغفر لي يا سيدي الدرويش.

الدرويش : هو وحده غفّار الذنوب. اللهم اغفر لنا ما تقدم، وما تأخر من ذنوبنا.

حنظلة : **(بدأ يتلعثم)** لم أقصد التباهي. لكن. . كيف أقول لك يا

سيدي. إن أموري في هذه الدنيا، وأمور هذه الدنيا تحيرني. ما آذيت في حياتي إنساناً. لم أطمع أبداً في مركز من هو أعلى مني، ولا حسدت من هو أغنى مني. كل ما أسعى إليه هو أن أقضي حياتي مستوراً وآمناً. ومع هذا فإن كل الأمور تجري معكوسة. . إذا مشيت تعثرت، وإذا جلست انزاح الكرسي وتشقلبت. لماذا يحدث لي ما يحدث؟ لا بد أن هناك سبباً مستوراً. وأنك تستطيع بعلمك الواسع، أن تساعدني على اكتشافه ومعرفته.

الدرويش : لا تلحف في السؤال. لأن السؤال يقود إلى الضلال. ولا تفقد الرضى لأن الرضى أثمن نعم المولى.

حرفوش : يا سيدي الدرويش، أرجو ألا تسوءك حشريتي. أترضى إذا طردوك من عملك وسدّوا باب الرزق في وجهك؟

حنظلة : **(فرحاً)** فعلاً، هذا ما ينبغي أن أسأله.

الدرويش : وأحمد الله أني المطرود لا الطارد.

حنظلة : **(ببلاهة، ثم تصيبه نوبة الضحك)** أحمد الله أني مطرود.

حرفوش : وإذا اعتقلوك دون جرم. . ؟

الدرويش : أحمد الله أني المظلوم لا الظالم.

حرفوش : وإذا جردوك من كل ما تملك؟. .

الدرويش : **(بدأ الحنق يظهر عليه)** أحمد الله أني المسروق لا السارق. .

حرفوش : وإذا طردتك امرأتك، لأن هناك رجلاً يتدفأ تحت لحافك؟. .

الدرويش : أفرمها **(يتوقف، يمسح بكفه على وجهه، يستعيد رواء قسماته ويتصنع الابتسام)** أحمد الله أني الحافظ فرجه لا المفرط به.

حرفوش : (ساخراً) ما أبهى نفساً يتلألأ فيها هذا الرضى.. أما صاحبي فإنه يتوجع وينوح بدلاً من أن يتلألأ.

حنظلة : (ببلاهة. وهو يتفرس في الدرويش وكأنه أعجوبة) يا سيدي الدرويش أيصيبك هذا كله، ولا تسأل لماذا يحدث لك ما يحدث؟

الدرويش : السؤال يقود إلى الشك، والشك إلى الضلال. أما الرضى فيقود إلى الحمد، والحمد إلى الايمان.

حنظلة : من قبل لم يكن يراودني أي سؤال، وكان الرضى يغمرني في النوم واليقظة. لكن أشعر أني أصحو بعد رقاد طويل في قفر، وكل ما حولي مرعب وغريب. لا.. إني مريض يا سيدي.. لا أستطيع أن أتحمل أكثر. أتوسل إليك أن تجد لي حلاً.

الدرويش : لا حل إلا أن تطهر نفسك من الشك والوسواس. داؤك في نفسك لا في بدنك.

حرفوش : (يقفز، يحمل المبخرة ويدور بها حول حنظلة الذي يبدو في غاية الاضطراب) تطهَّر يا عبد الله تطهَّر..

الدرويش : دع الأسئلة، فهي منفذ الشيطان إلى القلب. وفتش عن الرضى.

حرفوش : تطهَّر يا عبد الله.. تطهَّر..

حنظلة : لا قدرة لي. منذ أن أوقفت بلا ذنب تهاجمني الأسئلة كالحكَّة.

الدرويش : تلك هي حكَّة الشيطان.

حرفوش : تطهَّرْ يا عبد الله تطهَّرْ..

حنظلة : (يرتعد) حكَّة الشيطان! (يرتعش ويقفز كأن الشيطان يسمه) خلصني يا سيدي خلصني.

حرفوش : تطهَّر يا عبد الله تطهَّر.

الدرويش : سنكتب لك حرزاً يلجم الشيطان، لكن نفعه مع الذكر أوفى..

حرفوش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك..

الدرويش : الجأ يا عبد الله إلى الذكر، واطرد شيطانك.

(يتناهى غناء الذكر، يبدأ حنظلة بالتمايل مع الغناء، بينما يبدأ الدرويش في كتابة الحرز).

حرفوش : (غامزاً) الحرز أصلي يا سيدي الدرويش؟

الدرويش : (بامتعاض) لم يعرف عنا الغش أو التقليد. بسم الله الرحمن الرحيم.. (يعلو الغناء، وينغمر حنظلة في الذكر.. يستمر المشهد حتى ينتهي الدرويش من كتابة الحرز. يتناوله حرفوش الذي يصيح بين حين وآخر «الله حي». تتلاشى الإضاءة تدريجياً، ويظهر تداعي حنظلة الجسدي).

في الهواء الطلق

(بعد أن يصمت الغناء نهائياً. تغمر المسرح إضاءة عادية. حنظلة متمدد على الأرض يئن، وحرفوش يركب الأرجوحة مرحاً، يفتح الحرز..).

حرفوش : (ضاحكاً) لم يعرف عنا الغش أو التقليد.. هذا الحرز ينفع إن شاء الله للمحبة ووسوسة الشيطان، والعين والنظرة والشقيقة والصداع والضارب والسرطان والرمد والرعاف وحل المربوط وخلاص المسجون وبكاء الأطفال والفزع والبيع والشراء وسفر البر والبحر والمرأة المتعسرة الولادة والبنت البائر المعتوقة قاف.. هاء.. قاف.. هاء.. كل شيء كل شيء احجبوا عن حامل كتابي شر كل شيء يؤذيه بحق هذه الأسماء وبحق هذا الخاتم (يتجه نحو حنظلة) انهض يا صاحبي واستبشر، بفضل هذا الحرز وكرامة الدوريش لن ينالك الأذى بعد اليوم. (يختلج جسد حنظلة، وكأنه ما يزال تحت تأثير الغناء ثم يهمد) آه ما أعذب أن يغفو المرء بعد أن تشمله الطمأنينة.

حنظلة : (توجع وأنين) لا أقوى على النهوض. رأسي تعج بالذباب (يحاول أن يلملم جسده ويجلس) جسدي كله دمامل ورضوض. ضرب الحزام لم يكن أوجع (فجأة يتأرجح رأسه ذات اليمين وذات الشمال في حركة آلية ولا إرادية كأنه يسمع

إيقاع الزار. يحاول أن يوقف رأسه بيديه. لا يفلح. صارخاً بحنق ورعب) أوقف لي رأسي. (يقبض حرفوش على رأس حنظلة. ويثبته بعد جهد. يتجمد الرأس وترتخي القسمات في تعبير ذاهل كأنها قناع. ثم تأتي نوبة الضحك. يطبق حرفوش يده على فمه، إلى أن يهدأ.. يضرب كفاً بكف) والله كمُلتْ معي. فوق كل الأوجاع هذا الضحك، ودوار في رأسي. آخ إني دائخ. كل ما في ذهني تشوَّش أكثر من قبل. ما عاد هناك أمل في أن أفهم أي شيء.

حرفوش : كم تحب التأفف.! من الطبيعي أن ينالك بعض التعب والاضطراب. خروج الشيطان من البدن المسكون، يسبب دائماً صدمة عنيفة، وقد يؤدي إلى الجنون أحياناً.

حنظلة : خروج الشيطان!

حرفوش : نعم.. أما سمعت سيدنا الدرويش.. كان الشيطان يغويك. بالذكر فزع الشيطان وفرَّ، وهذا الحرز الذي كتبه لك سيرد غوايته عنك. (يدس له الحرز في صدره) الآن تطهرت، وبعد قليل ينجلي ذهنك، ويغمرك الرضى كالموجة الدافئة.

حنظلة : (بعنف وهو يدق الأرض بقدمه) ومن أين يأتي الرضى بعد كل ما حدث؟

حرفوش : أنعود إلى الأسئلة وغوايتها.. لا تلحف في السؤال، فان السؤال يقود إلى الضلال. هذا ما قاله سيدنا الدرويش.

حنظلة : وأنا أقول هذه معاجزة. أفقد كل شيء وتريدني ألا أسأل من أين يأتي الرضى! منذ أن اعتدوا عليّ، لا أستطيع أن

أرد الأسئلة. إنها تحفر رأسي كالمغارز **(يضع يده على رأسه)** آخ.. دوار وألم. أراك تدور.. الهواء يدور. **(مشيراً إلى المتفرجين)** هؤلاء الغرباء يدورون.. كله يدور.

حرفوش : ما أسرع ما تيأس.. انتظر حتى تشطف الطهارة قلبك. وتستقر فيه بركة الحرز.

حنظلة : **(بغضب، ينتزع الحرز من صدره ويلقيه على الأرض)** الحرز.. الحرز..

حرفوش : أيها التعيس.!

حنظلة : **(يتبلد وجهه فجأة.. يركع بحركة تنم عن المشقة والندم، يريد أن يتناول الحرز، لكنه يتوقف، وتعاوده نوبة الغضب)** إنك تلهو بي كما يلهو الولد الشقي بعصفور مريض.

حرفوش : **(متصنعاً الغضب)** وأنا الذي تحملت هذه المشاق من أجلك! إذا لم تشكرني ليس ضرورياً أن تشتمني. **(يدير له ظهره ويبتعد متخلياً عنه)** سأتركك تتمرغ في الزبل وحيداً..

حنظلة : لا.. بحق الله لا تتركني. **(يجري وراءه ويمسكه من كمه)** لم يبق لي أحد، ولا أعرف ماذا أفعل! من المؤكد أني لا أميز التعبير المناسب، لكن أرجو أن تصغي إليّ.. **(يتوقف، يلاقي عناء في البحث عن الكلام)** كيف أصف لك! فجأة رأيت كما يرى النائم. **(يتوقف)**.. لست نائماً وما يحدث لي ليس بالحلم. الأصح أن أقول، فجأة صحوت من نوم عميق.

حرفوش : **(يقفز مصفقاً)** بدأ يفهم.. بدأ يفهم..

حنظلة : أفهم.. أنا أفهم؟.. بل هذه هي المشكلة. لم تدعني

أكمل. صحوت فوجدت كل ما حولي فوضى مفزعة. الأشياء مقلوبة عاليها سافلها والناس ينكرونني، ويتفقون على إهانتي. كل هذا حدث فجأة. فكيف يمكن ألا أستغرب وأسأل.؟ ما معنى أن يحقنوني بالضحك بعد كل بلائي؟ وممَّ يجب أن أتطهر؟ أليس الأوجب أن يتطهر الذين أهانوني، وعذبوني؟

حرفوش : إنه يجده.. إنه يجده..

حنظلة : ما هو؟..

حرفوش : الطريق إلى المعرفة..

حنظلة : المعرفة؟ ولكن لا أعرف لماذا يحدث لي ما يحدث؟

حرفوش : تابع السؤال وفكر. **(يبذل حنظلة جهداً بالغاً في محاولة التفكير)** فكر فأنت تقترب من الجواب.

حنظلة : **(يضاعف جهوده العضلية في محاولة التفكير. بعد لحظات ينفجر يائساً)** لا أدري.. إني أفكر.. أحاول أن أفكر. إلا أن هناك جداراً من الظلام يوقفني. ربما.. لا شك أن الفهم يحتاج إلى قوة خارقة أو إلى تدريب طويل..

حرفوش : **(يستعيد حيوية اللاعب ويتجه إلى الجمهور)** حقاً إن الفهم يحتاج إلى تدريب طويل. وصاحبنا بدأ التدريبات الأولى. إنه يخطو على الطريق، لكن ما زالت أمامه مسافات. ومشيت معه. ليس المهم أن نجد لسؤاله جواباً جاهزاً، بل أن نعلمه كيف يجد الجواب بنفسه.. **(الآن يصبح الإيقاع سريعاً، وينسلخ الممثلان عن دوريهما.. إنهما يؤديان ما يرويه حرفوش، وكأنهما يحكيان قصة قديمة..)** ومشيت معه.

حنظلة : طرقنا أبواباً كثيرة.

حرفوش : كلها تقدم خدمات وأجوبة.

حنظلة : بعد إلحاح وانتظار طويل.

حرفوش : استقبلنا المثقف الحكيم.

حنظلة : رجل عظيم، يشعر المرء أمامه بالضآلة والرهبة.

حرفوش : إنه يعيش في بيت من الكتب.

حنظلة : آه الكتب.. مشهد يبلبل الفكر، ويزوغ فيه النظر.

حرفوش : الجدران كتب، والأثاث كله مصنوع من الكتب. السرير والمقاعد والمنضدة، وحتى أكواب الماء، ومنافض السجائر. استقبلنا الحكيم بوقار، وحنظلة يضطرب، ويتعثر.. (يحاول حنظلة أن يجلس، يخاف فينهض بسرعة.. يكاد مراراً أن يقع.. يبدو وكأنه دخل إلى متاهة).

حنظلة : **(مدارياً اضطرابه، يرفع صوته ليسيطر على نفسه)** يا سيدي الحكيم أنا إنسان بريء.

حرفوش : **(يتخذ وضعية الحكيم. يبدأ الكلام هادئاً، ثم يعلو تدريجياً. في النهاية تختلط الكلمات والحروف في تدفق صوتي مخيف)**. ما من إنسان بريءِ. البراءة هي العدم، الإنسان يأتي من العدم، وإلى عدم يصير. إذن البراءة قبل وبعد. ومن المستحيل أن تتزامن مع الوجود. الحماقة وحدها تتزامن مع الوجود. بين براءتين توجد الأفعال والكلمات، ولهذا فإن كل الأفعال والكلمات حماقة وعبث. ما بين براءتين كل الأفعال والكلمات. لهذا فكل الأفعال والكلمات باطل الأباطيل. الكل باطل، والكل قبض الريح. دور يمضي ودور يجيء. الشمس تشرق ثم تغيب. كل

الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن. ما كان فهو ما يكون، والذي صنع فهو الذي يصنع..

(يمكن أن يستمر هذا المقطع إيمائياً. حرفوش يومىء متحدثاً.. وحنظلة يضع إصبعيه في أذنيه وهو يعوي متوجعاً.. في نهاية المشهد ينطرح على الأرض أو يجري خائفاً وكأن الكلام كلاب تطارده.. يهدأ عندما يعلن حرفوش الانتقال إلى مكان آخر).

حرفوش : بعد المثقف الحكيم، طرقنا باب جمعية التآخي الاجتماعي.

حنظلة : استقبلتنا سيدة موقرة.

حرفوش : كان وقتها ضيقاً لا يسمح لها أن تصغي إلى القصة كلها. قاطعت حنظلة وألقت محاضرة مسهبة عن ضرورة التسامح الاجتماعي.

حنظلة : وفي النهاية حملتني رزمة ثقيلة من النشرات والمطبوعات.. **(يبدو حنظلة، وكأنه يجد صعوبة في حمل كل المطبوعات. يسقط بعضها، يحاول أن يجمعها فتسقط مطبوعات أخرى.. في النهاية يرميها كلها ويبدأ يدوس عليها غاضباً).**

حرفوش : ثم واتتني فكرة لماعة. لماذا لا نذهب إلى قسم «الرقابة الشعبية» في جريدة «الوطن». وهي جريدة ذات نفوذ قوي، وواسعة الانتشار.

حنظلة : دخلنا مكتب سيد محترم، استقبلنا دون فظاظة.

حرفوش : أصغى إلى القصة ولم يتأفّف. دوَّن بعض الملاحظات، واستفسر عن شؤون الحياة الزوجية.

حنظلة : في ختام الحديث كان بشوشاً. وعدني بحرارة أن يجد لي حلاً، ويساعدني على فهم ما جرى.

حرفوش : قال لـه وهـو يـودعنـا، اعتمـد علـيّ واشـتر غـداً جـريـدة «الوطن».

(بعد هذا الفاصل، يعودان إلى ما يشبه الوضعية السابقة. حنظلة مهدود، تنتابه الضحكة، ولحظات الانشداه.. بينما يمارس حرفوش لهوه، وحركاته البهلوانية).

صوت من الكواليس : الوطن.. اشترِ الوطن.. الوطن.. اشترِ الوطن.

حرفوش : **(يقفز في الهواء)** إنها الجريدة.

حنظلة : **(ينتفض ببلاهة)** الجريدة!

حرفوش : جاءك الفرج يا حنظلة. سأخطف عدداً على الفور. **(يتناول عدداً من الكواليس).**

حنظلة : **(وهو ينهض بأمل)** أيكون هذا السيد قد تذكرني؟..

حرفوش : **(وهو يحمل الجريدة)** الآن ستفهم سبب كل المصائب. **(وهو يقلب الصفحات)** الرقابة الشعبية.. الرقابة الشعبية. ها هي الصفحة **(يصفر)** ما هذا؟.. وحق الله إن قصتك تحتل رأس الزاوية.

حنظلة : **(فرحاً كالطفل)** أرني.. أرني..

حرفوش : انظر.. انظر.. مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط يشكو امرأته للرقابة الشعبية.

حنظلة : يشكو امرأته!

حرفوش : دعنا نقرأ الموضوع أولاً.

حنظلة : طيب..

حرفوش : حدثت هذه القصة في مكتبي. دخل إليّ مواطن اسمه حنظلة ثلاث نقاط لا تبدو عليه البلاهة.. وإن كانت عباراته تعاني بعض التفكك. روى لي حكاية مسهبة عن مشكلته العائلية. وهي تقريباً الحكاية التقليدية. غاب الرجل عن البيت فترة وحين عاد فارت الزوجة في وجهه، وأوصدت الباب دونه. وهو لا يعرف لماذا.. ويبدو أن الحادثة سببت له صدمة عنيفة فأصبح يختلق أحداثاً غريبة، ويتصور أنه موضوع كوارث متلاحقة. طبعاً القصة كلها عادية، لكن ما هو طريف ومثير هو أن يلجأ هذا المواطن إلى زاوية الرقابة الشعبية كي تجد له حلاً. إلى أي وزارة يمكن أن نحيل هذه الشكوى؟.. أم نقترح على الحكومة إنشاء مديرية مختصة بالشؤون العاطفية. على أي حال نرجو أن تقرأ زوجة المواطن حنظلة.. ثلاث نقاط، شكواه وأن تختار عمران عشها الزوجي لا خرابه بعد هذه الحكاية المسلية ننتقل إلى مشاكل المواطنين الجادة. ده.. ده.. ده.. وهذا كل شيء....

حنظلة : وتوقيفي!

حرفوش : هذا كل شيء.

حنظلة : وسرقة أموالي! وطردي من العمل!

حرفوش : هذا كل شيء..

حنظلة : **(يغضب بعنف)** لا.. إنهم يضحكون على ذقني. يجعلونني مسخرة. كذب واحتيال. أهكذا تعامل مشاكل المواطنين ومصائبهم؟.. مسخرة المساخر! أصبحت مسخرة.. الكل

يسخر مني، ويضحك على ذقني. واحد يدغدغني والثاني يروعني بالمعاصي والثالث يدوخني بالأحاجي والرابع ينصحني بالتسامح الاجتماعي، والخامس يحوّل كل مصائبي إلى قصة هزلية سخيفة. (يتوقف فجأة، تبرق عيناه) على الأقل، بدأت أفهم شيئاً مؤكداً.

حرفوش : (ملهوفاً) ما هو؟.. ما هو؟..

حنظلة : كل هؤلاء يسخرون مني ولا يريدون أن أفهم لماذا يحدث لي ما يحدث.

حرفوش : النور يضيء عقله. خطوة قصيرة، ونصل.

حنظلة : نعم.. متفقون كأفراد العصابة الواحدة. هذا غش فاضح.. هذا احتيال في وضح النهار. ألا توجد قوانين.. ألا توجد حكومة؟..

حرفوش : وجدتها يا حنظلة وجدتها.. تلك فكرة باهرة.

حنظلة : ما هي؟..

حرفوش : أن نقابل رجال الحكومة..

حنظلة : (تعود البلاهة المضطربة فتكسو وجهه) نقابل الحكومة؟..

حرفوش : المبنى قريب.. ولا شك أنهم يعرفون وهم رعاة الرعية سبب ما يلم بالمواطنين من مصائب. على كلٍّ، تلك هي مسؤوليتهم.

حنظلة : (متردداً وقلقاً) أتظن أن مشاغل هؤلاء الموقرين تسمح باستقبالنا؟

حرفوش : واجب الحكومة هو السهر على راحة المواطنين، وتحقيق

آمالهم. لا.. لم يبق أمامنا إلا رجال الحكومة. في البداية لم أقدر صعوبة المشكلة، وإلا كان ينبغي أن نتوجه إليهم فوراً. هيا بنا.. هي خطوة ثم تفهم كل شيء. (يجره وراءه.. بلهجة إعلانية) عند الحكومة (يتم تغيير الديكور والسير على إيقاع مارش عسكري).

عند الحكومة

(تنتصب طاولة عالية. يجلس وراءها أشخاص الحكومة الأربعة. وهم: الأول: الشرطي في بزة عسكرية، الثاني: الطبيب بنظارتين ضخمتين، الثالث: الدرويش، الرابع: رب العمل. ومعهم سكرتيرة هي الزوجة. سنشير للأشخاص بالأرقام لكن ينبغي أن تكون هوية كل شخص واضحة، وأن يتذكره المتفرج. الفرق يكمن في تضخيم الملامح والمبالغة في أمارتها المميزة. السكرتيرة لعوب، يتصف تعاملها مع رجال الحكومة بالمجون. يدخل حنظلة بخطوات مترددة، محني الهامة بكثير من الاحترام والوقار. أما حرفوش فيدخل بصورة ساخرة.. جذعه إلى الوراء، ركبتاه مثنيتان قليلاً، ويداه على فخذيه. يتوقفان. حرفوش يلكز حنظلة لكي يبدأ الكلام.. فيرتبك وتأخذه رعدة.. يداري وضعه بمزيد من الانحناء والاتضاع. ينحيه حرفوش قليلاً، ويتقدم بطريقته الساخرة).

حرفوش : أيها السادة الموقرون. هذا صديقي حنظلة. حلت به مصائب أثقل من قامته الضئيلة. وهو لا يعرف سبباً لها أو تعليلاً. فجاء إليكم آملاً أن يجد ما يحتاج من الإيضاحات الحكيمة. والحلول الفعالة.

(يتبادل رجال الحكومة السجائر في حركات مبالغة من الاحترام، وتتشابك أيديهم بعلب السجائر ويستحسن أن تكون ذات

حجوم كبيرة. بعد السجائر تعود الأيدي فتتشابك بالولاعات من كل الأصناف، سحابة من الدخان ترتفع فوق رؤوسهم التي تتقارب، وكأنها في غمار مشاورة. الحوار هامس).

الشخص ٢ : سدوا آذانكم، فأمامنا زبون نواح.

الشخص ٣ : الحزم.. الحزم فهو أوضح الإيضاحات.

(تتباعد الرؤوس. يتحمحم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه إلى حنظلة بلهجة خطابية).

الشخص ١ : نحن هنا.. في الليل والنهار.. في الطقس البارد وفي الطقس الحار، كي نرعى المواطنين رعاية الأم للطفل الرضيع.

حنظلة : **(يتشجع حنظلة ويوجه الكلام إلى الشخص الأول)** رعاكم الله وحماكم. هذا قول يطمئن ويبشر بالفرج. حقاً كان الأولى أن أجيء إليكم على الفور. سأروي قصتي من أولها.

الشخص ٤ : أوجز أيها المواطن فوقت الحكومة ثمين...

حنظلة : حاضر.. حاضر.. (**يبدو أنه يبحث عن أسلوب مختلف في الكلام. فجأة**) إلا أن البداية هي أساس كل المصائب وهي أول ما أتمنى أيها السادة الموقرون أن توضحوه لي. أنا رجل مستقيم.

الشخص ٣ : لا تتباه أيها المواطن.. فالحكومة لا تحب الذين يتباهون.

(حرفوش يضحك ضحكاً مكتوماً، حنظلة ينظر إلى الشخص الثالث ببلاهة، ثم يغمض عينيه كأنه يفر من ذكرى).

حنظلة : **(بعد تردد)** والله لا أقول إلا الصدق.

حرفوش : **(يلكزه)** إلى الوقائع يا صديقي.. إلى الوقائع.

حنظلة : (مرتبكاً الوقائع.. نعم.. أيها السادة الموقرون.. كنت أسير في الشارع بكل أدب واحترام. وعند منعطف صغير هاجمني رجال الشرطة ثم رموني في الحبس. إني أسألكم أيها الموقرون، وفي يدكم السلطة والقانون، أهذه هي العدالة.. وهل يجوز أن تقبض الشرطة على الناس دون ذنب؟ **(تتقارب رؤوس رجال الحكومة للتشاور. الحديث هامس)**.

الشخص ٤ : قاعدتنا الأولية.. الوقاية خير من العلاج.

الشخص ٢ : وفي حالات الاستعصاء الدماغية عصا الشرطي هي المجدية.

الشخص ٣ : كنت أقول دائماً، يستحق رجال الشرطة أكثر مما يأخذون. **(تتباعد الرؤوس. يتحمحم الشخص الأول، ثم يوجه كلامه إلى حنظلة بلهجة خطابية)**.

الشخص ١ : عندما ينعس المواطن ينام ملء جفنيه. ولماذا ينام المواطن ملء جفنيه؟ لأن الحكومة ساهرة كالأم الحنون. عليها أن تحفظ الشوارع هادئة، والبيوت آمنة، ورقدة المواطن هانئة. ولهذا يتحتم علينا، أن نعتقل الشبهة وشبهة الشبهة. وأن نسحق الشغب وهو ما يزال في الخواطر والنوايا. ما سمعناه منك أسعدنا وأثلج صدورنا، لأنه البرهان على أن رجالنا الأشداء يؤدون واجبهم على أحسن وجه.

الشخص ٤ : أكدنا مراراً ونعود فنؤكد حبس احترازي خير من مواجهة فتنة.

الشخص ٣ : والقضاء على نوايا الشغب يمنع ظهور الشغب.

الشخص ٢ : وإنها لحكمة من رجال الشرطة ألا ينسوا أبداً هذه القاعدة.

الشخص ١ : أظن أن هذه النقطة صارت واضحة. فهل هناك نقطة أخرى؟

حرفوش : **(يضرب حنظلة على ظهره)** هيا إلى النقطة الثانية.

حنظلة : النقطة الثانية.. ولكن.

حرفوش : الأولى أُشبعت وضوحاً. فإلى الثانية، ولا تنس أن وقت الحكومة ثمين. **(حنظلة يتطلع مرتبكاً إلى رجال الحكومة. نظراته هي بين الضراعة والخوف. إنه يبدأ بالتعرف عليهم تدريجياً...)**.

حنظلة : **(بعد تردد)** طيب.. وهذه محنتي الثانية. زوجتي التي قاسمتها السرير نصف عمري. طردتني، وأغلقت الباب في وجهي. إني أسألكم أيها السادة الموقرون، ماذا أفعل؟.. أليس هناك إجراء فعال ضد هذا الجحود؟

(يتبادل الأشخاص السجائر بالطريقة الآنفة الذكر).

الشخص ٣ : **(بعد فترة فيها يحملق حنظلة فيه، وكأنه يتعرفه)** هن لبوس لكم وأنتم لبوس لهن. الأسرة هي الخلية الأساسية في جسد المجتمع إذا أينعت أينع المجتمع. لن تدخل الحكومة تحت اللحاف لتكشف ما بينك وبين زوجك. لكن يسرنا أن تقف الزوجات الفاضلات معنا، وأن تعامل المرأة بالحزم زوجاً يفضل التسكع المشبوه على البقاء في كنف أسرته.

الشخص ٤ : المرأة التي تغلق الباب في وجه زوج متسكع تسهم في البناء الاقتصادي.

الشخص ٢ : تشجع التناسل، وتجدد شباب المجتمع.

الشخص ٣ : تقوي أواصر الأسرة، وتحفظها نقية طاهرة.

الشخص ٢ : وإنها لحكمة من الزوجة المواطنة ألا تنسى أبداً هذا القاعدة.

الشخص ٤ : فهل هناك إيضاح أوضح من هذا الإيضاح؟..

حنظلة : وضوح إيضاح الإيضاحات.

حرفوش : والثانية قتلت وضوحاً، فإلى الثالثة إن كانت هناك ثالثة..

حنظلة : (بدأ يتعرف عليهم. لهجته تشوبها منذ الآن رنة الاستخفاف وهدوء من يكتشف الحقيقة) الثالثة أدام الله فضلكم. لماذا تُسرق أموالي وفوق السرقة أسرح من عملي؟..

(تتقارب رؤوس رجال الحكومة، الحديث هامس).

الشخص ٣ : إذا تراخوا، أو تذمروا، فاستنفر الهمم إلى الاستشهاد.

الشخص ٤ : أنت تعرف أيها المواطن أن قوة أي بلد لا تقاس بثروته فقط. وإنما بقدرة أبنائه على التضحية. إذا أنت لم تضح وهو لم يضح فكيف نعمر هذه البلاد ونبنيها.

الشخص ٢ : إذا أنت لم تحترق وهو لم يحترق فمن أين تأتي النار؟..

حنظلة : (بغضب) لماذا أنا؟ أنا دائماً من يضحي! أنا دائماً من يحترقُ! أنا دائماً من يخونه الحظ! لماذا تتوافق كل الأشياء ضدي. كل الأشياء على الإطلاق؟.. العمل، والحياة الزوجية، والمال والصحة، والحذاء. وفوق هذا ما معنى هذه الآلة المعقدة من الكلمات الكبيرة والشعارات. من الواجبات والتضحيات.. يجب.. يجب.. يجب ثم ماذا.. ثم ماذا.. ثم ماذا..

الشخص ٣ : ولا تفقد الرضى، فإننا لا نحب إلا الراضين.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٤ : من يفقد الرضى، يضيعنا.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٢ : ومن يضيعنا تجده الشرطة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ٣ : ومن تجده الشرطة تنطبق عليه الزنزانة.

حنظلة : ثم ماذا؟

الشخص ١ : أعلنا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات والأخطار، يجب أن نكون كالبنيان المرصوص تشدنا أواصر القيم والمبادىء الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور أن يمس وحدة المجتمع ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة، مسيرة الشعب تحت الحكومة والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية حتى تتحقق كل الأماني العظيمة.

حنظلة : ثم ماذا؟؟

الشخص ٣ : انتهت الجلسة.

(يخرج الأشخاص).

حرفوش : فوقت الحكومة ثمين..

(حنظلة يحملق فيهم، ويتابعهم، وهم يخرجون واحداً إثر الآخر..).

حرفوش : هل فهمت الآن؟

حنظلة : **(لهجة واثقة)** حقاً فهمت. ظمآن وريقي ناشف. وإذن هم

أنفسهم. أنا أدور حول نفسي.. وهم.. أنفسهم متفقون كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالي، ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام.

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أين كنت طوال هذه الفترة؟..

حرفوش : ثم ماذا؟.

حنظلة : وكيف كنت أحيا؟..

حرفوش : ثم ماذا؟.

حنظلة : كانوا يسخرون مني دائماً وأنا غافل..

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : يضطهدونني، يسرقونني، يستغلونني وأنا غافل..

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : كانت حياتي السابقة كلها خدعة، وينبغي أن تتوقف هذه الخدعة..

حرفوش : ثم ماذا؟

حنظلة : أستحق ما جرى لي..

حرفوش : (بلهجة إعلانية إلى الجمهور) وهكذا استفاق حنظلة.. كانت الرحلة شاقة لكنها تستحق العناء. فهم أخيراً أن سبب آلام حنظلة هو حنظلة، وأن حياة حنظلة لا يغير مجراها إلا حنظلة..

حنظلة : كانت الرحلة شاقة، لكنها تستحق العناء..

حرفوش : (بقفزة بهلوانية) الاسم..

حنظلة : حنظلة بن حامد الحنظلي. مواليد الدرويشية.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : كل ما حولي يعنيني، لأن فيه مصيري.

حرفوش : المبدأ؟

حنظلة : قولة امش الحيط الحيط وقل يا رب السترة لا تقود إلى السترة..

حرفوش : هذا ختام الرحلة:

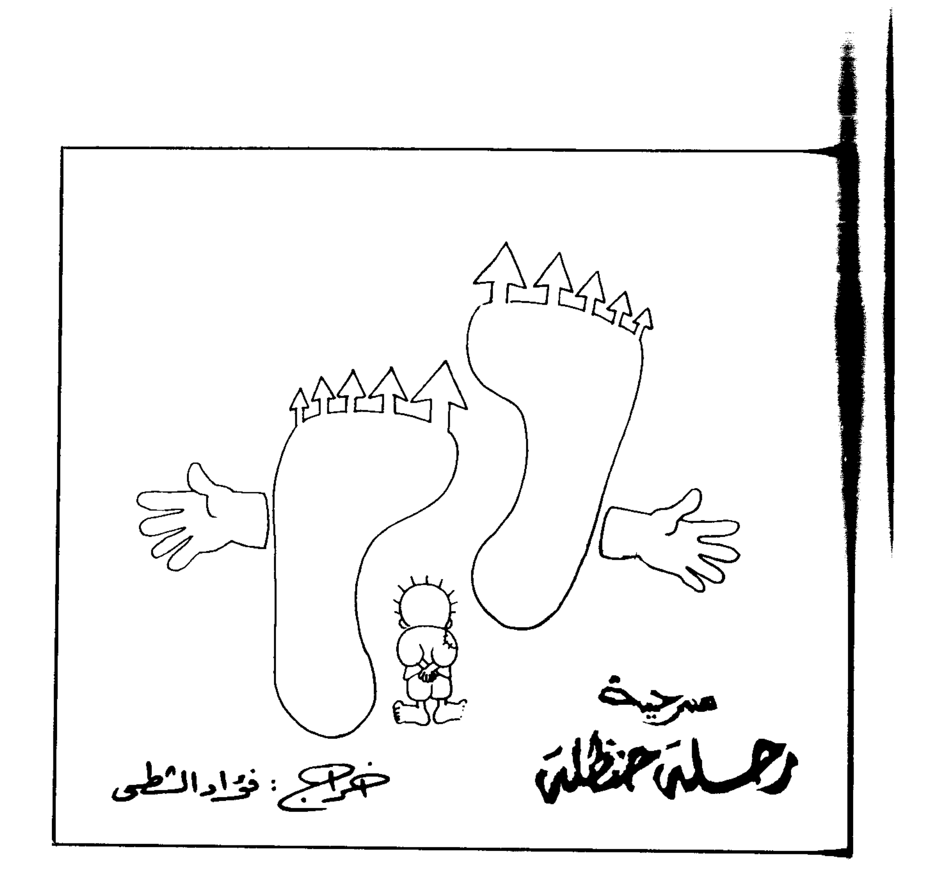
(تعود فترتفع من الكواليس أصوات رجال الحكومة بشكل صاخب ومهدد).

أصوات رجال الحكومة : أعلنا ونعلن.. في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات والأخطار يجب أن نكون كالبنيان المرصوص تشدنا أواصر القيم والمبادىء الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور أن يمس وحدة المجتمع ومؤسساته. إن المسيرة المقدسة مسيرة الشعب تحت الحكومة والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوية حتى تتحقق كل الأماني العظيمة.

حرفوش : (متحدياً) وبدء الرحلة.

حنظلة : وبدء الرحلة.

(يكرران العبارة مراراً).


مسرحية
رحلة حنظلة
إخراج : فؤاد الشطي

ميدوزا تحدق في الحياة

(مسرحية في فصل واحد)

- هذه أول مسرحية أنشرها. كتبتها عام ١٩٦٢، ونشرتها في مجلة الآداب (أيار) ١٩٦٣.

وقد حاولت أن أمزج فيها بين القصة والمسرحية، مستفيداً من الإمكانيات التي يتيحها القص في تصوير الجو والشخصيات، وفي حضوري كمعلق وراوٍ.

لقد سميتها يومذاك «مسرحية مروية» وقلت إن المسرحية المروية لا تختلف عن المسرحية المغلقة إلا في أنها تغني الإمكانيات الوصفية والإيحائية التي يسمح بها السرد، ثم إن الكاتب يستطيع أن يتدخل في المسرحية المروية بحرية.

- ميدوزا: هي في الأساطير اليونانية إحدى الغيلان الغورغونات وكانت مرعبة، ونظرتها تحيل من تقع عليه حجراً.

كانت الشمس تزحف للمغيب. وعلى الكون يهطل ضوء هادىء ذو عبق مسائي حزين. ولم تكن تلك اللمحة المسائية الكئيبة تفلح في التسرّب عبر ستائر الصالة السميكة، بل كانت تتكسر على الجدران، وتتموج بفتور يحاكي اللامبالاة.

وبهذا، فقد كانت الصالة «مكان المسرحية» منعزلة تماماً عن العالم الذي يتحرك بوناء وبلا نظام في الخارج، تغمرها أضواء خافتة كانت تزيد الأثاث رهافة، وتعطيه مسحة من السحر الأبكم، يقويها أن جميع الألوان السائدة تتدرج بين الأبيض في نقائه، والأسود في كثافته.

. . . وعندما غرقت قاعة النظارة في الظلام أنّت ربابة في عزف حزين لدقيقة، أو اثنتين، ثم انزاح الستار بطيئاً وساد صمت مقلق. كان على وجه «هيرا»، وهي نموذج كامل للجمال العصري، ابتسامة مكر تنطوي على تأمل عميق. وكان كورش يتململ في ترقب، وإثر هنيهات من انكشاف المسرح، نهض عن الأريكة المريحة زافراً، وراح يتمشى في عصبية محافظاً على صمته. إنه حاكم هذه المدينة الكبيرة، الذي يرهبه الجيران، ويتملقون قوته وأسلحته الفتاكة. طويل. . ممتلىء كما يفترض بأي حاكم. ورأسه كبير، وعيناه كعيون كل الحكام، مستنقعان من الخبث واللؤم والجشع. أما أنفه فمعقوف قليلاً، يظل الشارب المربع الصغير الذي يخفي فلقة شفته العليا. فمه قاسي التعبير، لكنه جذاب وجميل.

ومشى لحظات، ثم توقف، وفي أوصال وجهه ينتفض توقع ونفاد صبر. وكان مستشاره ـ فيدوس ـ يقتعد الكنبة المقابلة لهيرا ويضع رأسه المتطاول بين راحتيه، ومن وجهه الغارق في التفكير يشع ذكاء بارد لاإنساني ككل مستشاري الحكام.

ورمقه كورش برهة، ثم قال مزدحماً باهتمام:

- فيدوس. . إنه أكبر الأحداث طرّاً.

ووافق فيدوس بهزة من رأسه، وأضاف بصوت رديء التكوين:

- أجل، ولكن ما الفائدة إذا لم نحصل عليه. **(متحمساً، وقد تألقت عيناه)** إن مجدنا. . أقصد مجد سيادتكم سيتعالى حتى يبلغ الجوزاء. أما الآخر؟ إلى الجحيم ما الذي يستطيع أن يفعله بعد الآن؟

انبسطت أسارير الحاكم، واختلس الحديث:

- حقاً. . حقاً. لقد صار في قبضتنا، ولن ينفعه بعد الآن تفوقه في صناعة الصواريخ.

فتدخلت الفتاة عابثة تبتسم:

- كم أرقّت أبي المسكين تلك الصواريخ اللعينة.

نهرها والدها دون غضب:

- كفى تخابثاً يا هيرا. . ألا ترين أنه وقت سيء للمزاح. **(ثم التفت إلى المستشار)** ألم يتأخر؟

- لم يأزف الموعد بعد يا سيدي. **(وتردد قليلاً ثم تابع)** ولكن ماذا لو رفض؟ لا أكتمك ان المسألة دقيقة، وإذا صح ذلك، فنحن في قبضته أيضاً.

انفلتت من هيرا ضحكة مليئة بالمرح والفتنة، فقطب والدها، وقال بصوت عال:

- إنك تفتقرين للشعور بأهمية الأحداث.
- لا، على العكس أنا مهتمة جداً. ولكن فكرة أنكما في المصيدة راقتني حقاً.

هز كورش رأسه، وتمتم وهو يعود إلى الجلوس:

- كانت البنات في عصور فاتت أكثر تأدّباً.

فابتسمت هيرا بغنج، وهمست:

- لكننا من نسيج واحد يا أبتاه.
- أوه.. إلى الجحيم. إنك تشتتيني وحسب. (واستدار إلى فيدوس) أتظن أنه يرفض؟
- لا أعلم تماماً، فقد يركبه عناد مفاجىء. وتعرف سيادتك أنه لم يتعاون معنا من قبل كما يجب.

ثار الحاكم، واختبطت عيناه:

- لن يجروء على الرفض، لدينا وسائل..
- سيدي. (وتمطّت في عينيه نباهته) إن الغضب غير مجدٍ. وأرجو أن تتذكر باستمرار أننا في قبضته إلى حد ما.

تدفقت ضحكة هيرا كموجة من الفضة وقالت:

- سيكون ذلك ممتعاً للغاية.

فسأل الحاكم متضايقاً:

- أي شيء؟
- أن يعرف فتاي الشاحب أنه خسر. (وتلكأت) أجل. هذه لفظة مناسبة تماماً. (ثم استطردت) أن يعلم أنه صار شيئاً تافهاً في قبضة غريه.

زاد تضايق الحاكم:

- إلى الجحيم بفتاك. وماذا يعنينا به الآن؟ (متوسلاً) هيرا نحن نعيش لحظة مصيرية هائلة، إننا على شفا تغيير جذري رهيب يستقطب كل اهتمامنا، ويقظة أعصابنا.

طافت سحابة من الرقة في وجه هيرا، وعذبت قسماتها. بيد أن لهجتها ظلت ماكرة:

- أبت. ولكنك كنت تحب الموسيقى، وترعى فتاي.
- نعم.. نعم. عندما كان ذلك مفيداً للحكم، أما الآن فماذا تجدي الموسيقى أمام هذا التغيير الكلي للحياة؟

دخل فيدوس، وكان وجهه المتطاول، الذي ينتهي بذقن مدببة ينقبض في ضيق:

- سيدي. علينا ألا نضيع الوقت، يجب أن نفكر قبل كل شيء في الطريقة الناجعة التي تضمن امتلاكنا لهذا الاختراع.

فقال الحاكم، وكأنه يستيقظ:

- حقاً.. حقاً، يا للشيطان.. (صمت لحظة) وماذا ترى أنت؟ ألا تعتقد أن للمجد سحره أيضاً؟

هز المستشار رأسه بأسف، وأجاب:

- المجد؟ لا.. يا سيدي، هذه كلمة لا معنى لها إزاء ما يمتلكه. اختراعه يهبه مجداً أعم وأكبر. (انقلب صوته همساً) حسبما فهمت يستطيع ببساطة أن يصير سيد عالمنا المطلق. والمسألة هي أن نستطيع إقناعه، مبدئياً على الأقل، بأن يشاركنا ثمرة عمله، وأن يقف معنا في حرب تلك المدينة الحقيرة التي تحرمنا الطمأنينة والهدوء. إننا سنتمكن (وابتسم غامزاً) من مسخ حاكمها التافه، والعبث به كقرد مضحك. سنتحكم في مصير

سكـانها. . في مصير سكـان جميع المـدن. (تعالى حماسه واشتـد) سنصير سادة العالم، وأربابه من غير منازع أو مزاحم. (واستفاق إلى نفسه) آه. . المعـذرة إنني لا أكاد أملك نفسي عنـدما أتخيـل القوة الكـامنـة في ذلـك الإنجاز العلمي العظيم.

- لا عليـك يا فيـدوس. (قال الحـاكم، وكان الاغتبـاط يطوف في عينيـه) إن القلب يجيش لتصوراتك الخلابة. وسأتشبث بهذا الاختـراع حتى أمتلكه ولن. .

وكـاد أن يضيف شيئاً لـولا أن هيرا ضحكت من جـديـد. ثم غمغمت وقد سهمت عيناها الرائعتان بعيداً عن أبيها ومستشاره:

- كم سيكون مشهده مثيراً لحظة يتلقى النبأ. . لا ريب أنها لحظة تـاريخية (تصمت برهة) وعنـدما سيلتقيـان في هذه الغـرفة، سنـرى ذروةً، حبس العالم أنفاسه طويلاً قبل أن يلتقيها. إنني موقنة أنها ستكون ذروة قـاسية بشكل ما.

زفر كورش موشكاً على الانفجار. غير أنه تصبّر، وسأل بهدوء:

- والآن عم تتكلمين يا بنيتي العابثة؟

- عمَّ؟ عنه بالطبع. فتاي الذي يحيـك من نبع انفعـالاته أعـذب الألحان وأروع الحكايات. (وضحكت كاشفة، وبشكل مفاجىء، عن عـدم اكتراث وحشي) لقد أرسلت الطلب إليه أن يحضر.

وعلى التو أزبد الحاكم بصوت بيِّن النفور:

- يحضر؟ وله؟ بحق الشيطان عم تبحثين؟

فهمهمت هيرا بإبهـام. ثم راحت بعد قليـل تحكي، ومن بعيد انسـاب نغم الربابة مؤسياً:

- أنت تجهل علاقتهما. فتاي وعالمكم هذا. أتعرف أنهما من حي واحد في

المدينة. وكانا صديقين، ثم اختلف بهما السبيل وتعاديا متحدياً كل منهما الآخر. وبينما انكب العـالم على رمـوزه وتجاربـه في عتمة المختـبر وزحامـه، انطلق فتاي يعزف ألحانه التي أسكرتنا فرحاً وحنيناً. في البداية، عنـدما راحت ألحانه تنسـاب في جوف المـدينة وتتسرب إلى هـدأة بيوتهـا، كان يسخـر من صديقـه، ويسميـه لي «الأحمق الـذي يـظن أن هنـالـك مـا يُمسك». ولما تقـدم الزمن، وأخـذت الأنباء تتنـاهى خافتـة من المختبر الكبير تحمل كشفاً إثر الآخـر، بدأ الخـوف ينسلُّ إلى حنـايا فتـاي. وفي يوم، جاءني يبكي، وأنشـد لي أغنيته الممتـازة عن وحشة الـرحيل نحـو الليل، ثم ارتعشت قسماته المرهفة وقال كأنه يختنق:

«إنني مهدد يا هيرا. والجهال ذاته لن يسلم. أنت كأس الرهان كـما أنك إلهـام الفرح في تغاريدي»، وتوقف، ثم ضحـك بخوف،وهمس: «أتصـدقين. ! إنـه يبحث عن إلغـائي وإلغـائك. . » وعنـدئذ تمتمت: «لا أفهم مـا تعني». فقال: «البارحة التقينا صـدفة، وربمـا كنت أبحث قلقاً عن هـذا اللقاء. لقد سخر مني، وقال إنني أكثر من الضجيج اللامجـدي، وإن المستقبل له. وكل شيء سينحني أمام أبحاثـه التي أثبتت جدارتهـا، وقدرتهـا على هتك كل الأسرار». وفجأة ثـار فتاي، وانفجـر غبـار في عينيه، وتابع:

«أتعـرفين أي وهم يـطارد الآن؟ هـو لم يصرح، ولكن دلالات كثيـرة تكشف الحلم الذي يتلمسه خلف تفاعلاته وتجاربه. إنه يريد أن يخضعنا للأرقام. أن يحولنا كأية ظاهرة طبيعية إلى عملية ذات مفتاح. هيرا إنني خـائف، وفي قلبي شعور بالتهـاوي، ينبغي أن نوقفـه، فما زلنـا الآن نستطيـع». وهززت يومها كتفي، بينما أخذ يشتد اهتمامي بالآخر، وانتحب فتاي بسبب لا مبالاتي كالعادة. وعزف مؤلفه الحزين «الجمال الأصم» وظل خوفه يتنامى، وقلقه يشتد وكفَّ مذعوراً عن مراقبة الآخر، وكأنه يتحاشى الارتطام بهـزيمته، وراح يعزف. ألم تلاحظ نشاطه أخيـراً؟ حقاً تسود أعماله بعض الغـرابة

ولكن أغنية «ميدوزا تحدق في الحياة» مؤثرة للغاية حتى لكأنها صراخ يتناهى من جوف خراب رهيب. والواقع أنه أكثر في الفترة الأخيرة من الصراخ. وفي كل مرة كان يتطلع إليّ شبقاً ملهوفاً، ويقول:

«يريدك يا هيرا لكن بعد أن يسمِّرك على صليب، يا سحر العالم الحي، قولي إنك لن تمنحي نفسك. قولي إنك ستظلين الوهج المستور الذي يتلوى في إلهامي. قولي..» ولما لم أكن أتفوه بكلمة، كان ينخرط في النحيب، وإنشاد الحكايا الدامعة الكئيبة. (وقهقهت هيرا بغتة، وبعد لحظة صمت تابعت بصوت معدني لا معبر) واليوم، يتواجهان في الخاتمة أمام أعيننا (بمزيد من اللامبالاة) وسيكون ماتعاً أن نرقب المشهد.

تأوَّه الحاكم متوتراً من الغيظ:

هل فرغت يا بنيتي أخيراً؟ يا للقصة المؤثرة.! ولكن بحق كل أبالسة الكون ماذا تفيدنا الآن روايتك الطويلة هذه عن فتاك الناحب أبداً؟ ثمة أمر وحيد يستغرق الاهتمام. هو كيف نملك هذا الاختراع الجديد، الذي سيحقق لنا السيادة على النوع البشري برمته. (ملتهب العينين في حماسة) يا بنية.. أتدركين معنى أن تصير الطبيعة الإنسانية معادلة يمكن حلها، والعبث بها.. أن يتحول كل إنسان إلى عملية (اشتد حماسه، فالتفت إلى مستشاره) فيدوس، لا يمكن أن نتساهل في مسألة امتلاكه. وعلينا ألا نعدم الوسيلة.

وكان فيدوس يفكر مبرهناً على إخلاصه كمستشار، أو لعله ـ ككل المستشارين ـ يهدهد في أعماقه أطماعاً خفية. وبعد برهة هبط ذقنه إلى الأسفل وانفتح وجهه فيما يشبه الإشراق، وأسرع يتكلم:

- حكاية هيرا أوحت لي بوسيلة فعّالة أظنها لن تخيب.

وتلهف الحاكم:

- ما هي؟

وتباطأ فيدوس متخابثاً:

- كان فتاها يؤكد أن الآخر يريد الجمال بدوره. هي وسيلة قديمة إلا أنها كالمعادن الثمينة تحافظ على فعاليتها وقيمتها. (ونظر إلى الفتاة مبتسماً) ولو شاء السحر لنلنا مبتغانا بلا عناء.

فقفز الحاكم عن أريكته قائلاً باهتياج:

- فكرة بارعة يا فيدوس. (وتقدم نحو هيرا، وعلى وجهه يتلامح رجاء) كنت دائماً أفخر وأثق بك يا بنية.

فاحتجت هيرا:

- لا تدسني في مخططاتك يا أبت.

- مخططي هذه المرة يطاول الآلهة ذاتها. ولن يسعك أن تظلي مكتوفة الأيدي.

تدللت هيرا:

- ها أنتذا تعاملني كوسيلة. حين يتعلق الأمر بالسلطة لا تفكر إلا بنفسك.

- لا تبالغي.. (قال كورش).. أنت تحبين السيادة أيضاً، وستحققينها يا هيرا، جمالك سيفقده إرادته حتى أنه لن يضن بشيء حين ترفين بأهدابك.

واندس فيدوس.

- وحينها تبتسمين مبدية بهاء الشمس الفتان سيركع ويسلم قياده للفتنة الآسرة.

لكن هيرا قالت في حذر آسف:

- قد لا يكون بهذه الرخاصة، بل ويخيل إليّ بما عرفته عنه أنه لا يتأثر وأن عينيه تطفحان ببرود جليدي مرعد.

تقلصت ملامح فيدوس:

- لا أصدق

فتابعت هيرا باهتمام، وفي دخيلتها أصداء عميقة لما تحكيه:

- قال لي فتاي مرة إن أعصابه جفّت، وتحولت أسلاكاً نحاسية تصدأ. لعله كان يبالغ، لكن اختراعه يلوح لي وكأنه يتضمن تأكيداً قاطعاً.

توّتر الحاكم وسبّ:

- اللعنة على فتاك.

فاصطنعت هيرا الغضب:

- أبتِ، لا تنس أنني ما زلت أحب الموسيقى وحكاياته.
- حسن. ولكنك صدّعت رأسي به. خاصة وأنك تعلمين حاجتي الملحة للتركيز. (**صمت وقتاً مسح جبينه فيه، ثم سأل برجاء هادىء**)أتحسبين حقاً أن الجهال عاجز وأن السحر فقد سطوته؟

ابتسمت بغموض، وأجابت:

- لا أعلم.

غير أن فيدوس عقّب بصوت حازم متعنت:

- أما أنا فلا أعتقد ذلك. ربما كان أكثر تماسكاً، لكنه في النهاية إنسان ذو إحساس وانفعال ورغبة.
- فأومأ الحاكم موافقاً:
- نعم هذا ما أحسبه أيضاً. (**ثم ابتسم مداعباً، وقال بروح معابثة**) إننا من نسيج واحد يا بنية، أليس كذلك؟

هزت هيرا رأسها وزمت شفتيها فيما يشبه الضيق:

- أوه.. يقيناً أحلم بألاّ يكون قلبه قد جفّ. فأنا الأخرى أتابع أحلامي..

ولم يبال كورش في التدقيق بعبارتها، بل هتف متحمساً:

- يا للفوز! أنا واثق يا فيدوس أننا لن نلجأ بعد إلى وسائل أخرى.

ووافق المستشار، وبسمة ظفر كاذبة التواضع تتراقص على شفتيه، وتتمدد إلى زاويتي فمه الثعلبي. وسهمت هيرا كارهة متابعة الحديث. وربما كانت تتخيل هنيهة قادمة، وربما كانت تحلم.

جلس الحاكم على الكنبة المجاورة لابنته، وتمتم شبقاً، وملامحه تهتز باطمئنان متخم بالشهوانية:

- الآن.. إذا لم يغره مجد الحكم، فلن يفلت من المصيدة الأخرى، ولعله يقدم كل ما نريد بلا مشقة، وغداً سيمكنني يا فيدوس أن أعبث بأقدار الناس. أن أعرف أفكارهم وما ينتوون، وأمسك بزمامهم جميعاً فلا يفلتون. أن أهزم الرجل الآخر، وأكشف مواطن ضعفه ومناحي عزمه، أن..

واستخفّه اهتياج، فنهض، وراح يتمشى من جديد، وعيناه مكتظتان بالغبطة النافذة الصبر، ولم يقل المستشار شيئاً. وساد سكوت مشبع بتوقع خاص، يسري في أوصاله عزف الربابة نحيلاً، وكانت الشمس خارج الجدران لا تزال تزحف نازفة نجيعها، ناشرة خلفها جواً من أسى يتكاثر وينمو. وثمة ضوضاء تتقاطع، وتتشابك لا مبالية بما يحدث داخل الجدران الملساء التي تشهد بطريقة ما على لحظة العصر. أما ساعة المدينة الشامخة، ذات الدقات الموسيقية القاتلة، فكانت تواصل سيرها، معمقة الشعور المغموم بهذا اللااكتراث الكوني الذي يطبق على مسرح القصة.

وخفت نور الصالة قليلاً حتى تحول شحوباً محمراً، وفقد الأشخاص الثلاثة تمايز الملامح، بينما علت أنات الربابة خلال السكون الذي ظل

سائداً حوالي دقيقتين، ما كف الحاكم خلالها عن التمشي في رواح وغدو عبر المساحة الكائنة بين الأرائك.

وبعد قليل، انبثقت من غطاء الصمت نغمة موسيقية صاخبة. كانت رنين التلفون الداخلي. فاشتد النور، وخفّ الحاكم صوب طاولة صغيرة في الركن، وضغط زراً. وتكلم بينما انغرزت في وجهه عيون أربع تراقبه:

- من؟

- . . . .

والتفت كورش إلى هيرا مجاهداً في إخفاء امتعاضه:

- إنه فتاك. (في رجاء) سيعكِّر يا بنية لحظتنا العظيمة، فهلا أوقفت هذه اللعبة العقيمة.

غير أن وجه هيرا الذي يشع، انتفض في فرح مشاكس، وقالت قاطعة اللهجة.

- لا يا أبت.. ليدخل.

- ولكن قد يفسد خطتنا التي تتطلب تأثيرات هادئة ومريحة، خاصة وأنك تصفينها بالعداوة.

- مهما كان فأنا أريد مشاهدتهما معاً. (بحياد وتأنٍ) ثم أليس من حقه أن يرى هزيمته؟

- وما فائدة..
فقاطعته:

- أبتِ لا تحاول..

- أفّ ما أشد عنادك.! (وأضاف هامساً) ثم من يستطيع مخالفتها بعد

ذلك. (وحول وجهه إلى مسماع الجهاز، ورمى الكلمة كارهاً، نافراً) ليدخل. فتبسم فيدوس في مكر بيِّن، وقال غامزاً:

- إثارة الغيرة سلاح فتّاك، وسيستمر مفعوله ما ظل الانسان.

رمقته هيرا باحتقار ولم تتكلم. وكان كورش يعلن إعجابه بالفكرة، حين انفتح باب لا يكاد يميز في الجدار المقابل للنافذة، انساب منه رجل نحيل، مرهف الوجه هزيله، وعيناه ملتهبتان بانفعال مزمن وغني يحمل في يده اليسرى كماناً فاخراً في علبة سوداء توشيها زخارف تجريدية بسيطة، ودون تحية، قال بصوت قلق عريض:

- أنا أفهم أن تسجن السلطة نفسها في الكهوف، وهي دائماً حبيستها أما أن يحتجز الجمال كهدف فذلك ما لا يطاق، أو يفهم.

فهز الحاكم رأسه، وقالت هيرا حريصة على اللامبالاة:

- طبيعة اللحظة رتبت اجتماعنا يا داريو.

- اللحظة. (وارتعشت شفتاه) في الماوراء. هناك. خلف حيطان هذه الفجوة المكتومة يلوح العالم وكأنه على شفا هاويته، وربما كانت الشمس تصرخ لنا بذلك.

فقال كورش منزعجاً:

- حقاً، لهي أنسب الصفات. إنك تكثر من الضجيج وحسب.
فوجيء داريو، وانتفخت عيناه:

- من قالها لك؟ (وصمت برهة) إني أشم رائحة هول حقيقي.

- ربما. (قالت هيرا بعدم اهتمام) هي لحظة قاسية يا داريو.

- تحدثي يا هيرا. ماذا هناك؟

- (ببطء شديد) حدث ما كنت تتوقعه. أو ما كنت تخشاه على الأقل.
(والتهمت حيرة متوجسة عينيه، وهبط ثقل على لسانه فجمده، وبيده أومأ يسأل فتابعت هيرا بنفس البطء) لقد نجح أخيراً.

- نجح؟

- نعم، واليوم تناهى إلينا الخبر. فبعد أبحاثه الشاقة المستمرة توصل إلى بغيته **(وسكتت لحظة، ثم استأنفت مشددة على الكلمات)** لقد اخترع عقلاً آلياً يستطيع بطريقة ما، لم نعرف الكثير عنه، يستطيع أن ينسق الإنسان في معادلة ذات اتجاه خاص، وحتمية معينة معطياً المفتاح الفعلي للسيطرة عليه، وتوجيه حركته كما يشاء **(بلغت لهجتها ذروة التجرد)** تماماً كما يمكن تغيير أية معادلة حسابية بإضافة بعض الأرقام أو إنقاصها.
(وانهار داريو على أقرب أريكة، وأخذ اصفرار راعش يغزو وجهه) إنه حدث العصور برمتها يا داريو. **(ثم بما يشبه السخرية)** ولن يعود بوسعك بعد، أن تستمد إلهامك من الغموض وسرنا الخفي. فلم يبق ثمَّة سرٌّ. وبعد أن خضع الكون للحساب، ها هو الذي سميته، متمرداً مطلقاً على التأطير، يلين ويخضع بقسر مذلٍّ لسطوة الأرقام.

- لا.. لا.. **(حشرج في مقعده)** إنك تمزحين، أو تتخيلين.

- بل أقول الحق يا داريو.

- يا للكون.. هي النهاية إذن. **(واهتز، وتقلص وجهه الليموني المتهافت ولم يتحمل، فنهض متحركاً بهستيرية، وكأن أسراباً من النمل القارص هاجت في داخله، وبصوت متلاشٍ غمغم)** كنت أحدس. كنت أخاف. **(ثم مقترباً من هيرا)** فسد كل شيء يا جمال العالم، وكان ينبغي أن يوقف.

وتداعى صوته، وماعت عيناه، فانخرط في نحيب. ولم تفارق الابتسامة شفتي هيرا، فيما ضرب كورش فخذه بيد متوترة، وقال متلمساً الهدوء:

- أرجوك. لا تنتحب بهذه الصورة. إنك تثير أعصابي..
ولم يأبه داريو، أو لعله لم يسمع. واشتد انتحابه، وفتح كمانه كي يعزف، لكنه بعد أن وضعه على خده، أسقط يده في يأس قائلاً:

- ولمن سأدع اللحن؟ لأجيال الكيمياء؟
فعنّق الحاكم فارغ الصبر:

- تمالك هدوءك يا سيد داريو. إن روحي لا تحتمل الضوضاء في يوم تاريخي كهذا.
وانتبه داريو:

- ضوضاء؟ لعلك لا تتخيل رهبة السقطة.
فهتف فيدوس ممتعضاً:

- يا للحمق.! أتسمي ذروة تفوقنا سقوطاً.. إن الحكم ينتظر منذ الأزل هذه الدعامة المكينة الأبدية.
بان على قسمات داريو ذهول تأملي:

- آه.. شممتها إذن كيفية استغلاله، **(وارتفع صوته)** يا للجحيم... **(ثم صمت لحظة)** لن تفعلا ذلك. غير معقول. فسدت الأرض. ماتت الأرض وعلينا أن ننسحب. **(واقترب من هيرا وصوته يتهدج إلى رخاوة النحيب ثانية)** هيرا.. الصَّلب يخرب الجمال، وأرقامه تعدم الجميع **(ثم تهافت صوته أكثر)** يا سحر الأرض العابث. عند هذا المنعطف الختامي، والمصير يسوقنا نحو هاوية العدم؛ لا تجوز اللامبالاة بعد.
فقال كورش ثائراً، بينما أخذت بسمة غامضة ترف على وجه هيرا:

- بحق الجحيم. دعنا نفكر كيف سنخطو؟ وراءنا عمل كثير. وعندما يأتي، لن نستطيع أن نتباحث في هدوء ما لم تكف عن عويلك المرهق.

- وهل سيأتي هنا؟ **(بهستيرية مرتعشة)** نعم.. نعم لا بد من اتفاق كي

تتقاسما السيادة الكلية، وقد تستطيع خداعه فيما بعد واغتصاب الاختراع لنفسك فقط. (وقهقه باكياً) لا تنس قبل كل شيء أن تذبح كل أقرانه، فجميعهم خلف المجاهر، يزحفون نحو الغابة نفسها. (جحظت عيناه عاجزاً عن تمالك نفسه، ودار في مكانه) لا. لن أصير معادلة.

لن أتحلل. لن..

وتفكك ترابط حركاته أو اتّساقها، ورفع كمانه فجأة، وراح يعزف نغمات وانية من لحنه «ميدوزا تحدِّق في الحياة».

وخفت الضوء قليلاً، ومع انسياب النغمات دبت رجفة في عيني هيرا، وارتخى وجه كورش بليداً لا ينفذ إليه أتفه تأثير، بينما لاحقت أفكاره أطماعاً قصية. ورويداً.. رويداً تعالت النغمات مأساوية كغناء كورس حزين ينبعث من خلف المسرح، ثم تلوَّت زافرة في الجو كآبة تمس القلب. تعصره وتوجعه.

وبعد برهات. والجو مشرب بالحزن الطافي على أنغام اللحن، انفجرت نغمه التليفون ثانية، فأرجفت الجميع يقظة، وهرع الحاكم ملهوفاً:

- من؟

حبس الجميع أنفاسهم، وتهلل كورش:

- ليتفضل.. ليتفضل. (ثم تلفت إلى فيدوس لاهثاً) هو بعينه (لهيرا) يا بنية حانت لحظتنا التاريخية، فتهيأي لقطوف أقصى مجد طارده حلم الإنسان.

لحظتئذ انطرح داريو عند قدمي هيرا مرتعشاً، وتوسل:

- لا تنخدعي أرجوكِ (ثم صاحب اللهجة) لم يبق إلا أن نرحل. العينان المعدنيتان تمتصان الحياة والأمل معاً.

وكان نبأ وصوله قد هز هيرا، وقلقل استرخاءها، فقالت:

- الحق أنه يجتذب فضولي.

- كلا.

وقفز. وفي ذات اللحظة انشق الباب الذي لا يكاد يبين. ودخل منه رجل نحيل يشبه إلى حد ما داريو. قسماته قاسية.. صلبة يمور فيها قلق مخرب، لا يتوضح إلا في جيشان العينين القانيتين. حركته بطيئة فيها إنهاك شديد، واشمئزاز مائع.

وهرع الحاكم لدى دخوله، ورحب مغالياً في إبداء الحرارة:

- أضنانا الترقب. وإنه لفخر أن تشهد هذه الدار عظيماً مثلك.

طافت ابتسامة هازئة محرورة على شفتي القادم، وجال بعينيه في أرجاء المكان، ثم قال واهن الصوت:

- الاجتماع متكامل. وأنت موجود أيضاً يا داريو. في القديم (زاد التعب في عينيه) كنت أحلم بحضورك في مثل هذا اليوم. وكنت أغتبط بشكل وحشي مستمداً من حلمي عزماً أمضي وصبراً أشد. لكن.. الآن.. (وتنهد) اللعنة، كم تخدعنا أوهام نفوسنا!

وكان داريو يحدق فيه بعينيه المذعورتين والمتورمتين بالكراهية وسأل مسحوقاً:

- أحقاً وصلت يا هراري؟

- بلى. والآلة لا تخطىء يا صاحب، فهي القمة العقلية لكل نشاطات العلم. ولا أشك أنك كنت تعرف أنني أعدو إلى هذه الغاية. وقد وصلت (وضحك حزيناً مغمضاً عينيه) نعم يا داريو. في مكنة آلتي أن تسيطر على الإنسان وتحوله ابتداء من كمية من المعلومات الأولية إلى معادلة حركية ذات نظام خاص يمكن كشف أسرارها وطاقاتها واتجاهات

مستقبلها. ولن يكون بوسع أية حياة إنسانية، أن تزعم امتناعها على التحديد والتقييد وأن تفخر بفطريتها. حتى نفسك الجياشة، المزدحمة بانفعالاتها وتصخابها السري المنابع يمكن أن تتحلل، وتتموضع داخل علائق حسابية مفرطة في نظاميتها. وأنا لا أكتمك، أنني أعرف في هذه اللحظة طبيعة العلائق الخاصة بك، ومنحى الحركة العنيفة التي تقود مجراك.

تأوه داريو، وضرب جبينه في يأس مميت، ثم بغتة، هجم بكمانه على هراري، وأراد أن يضرب، فتحرك الحاكم. لكن، وبحركة غامضة للغاية، حطم داريو كمانه على مسند أريكة فارغة وأخفى عينيه بيديه مغمغماً:

- لا جدوى.. أزفت الساعة. لا جدوى.. أزفت الساعة.

واحمر وجه الحاكم غضباً وضيقاً، وصرف على أسنانه قائلاً:

- يا للشياطين.! أتعجبك يا هيرا هذه السخافات؟

وضحكت هيرا بصفاء:

- ماذا صنعت يا فتاي؟ حطمت كمانك؟

فرفع داريو عينيه الدامعتين باندهاش، وسأل منكسر اللهجة، محطوم التعبير:

- أتشمتين؟ حتى أنت يا فتنة مجرتنا يسممك حب القوة. **(بثورة عنيفة)** لكنك ستعرفين عما قليل أنك لا تساوين شيئاً إلا في أنغامي، وفي تأودات أشعاري. وأن القوة التي تسحرك ستقتلك هازئة بخيالاتك **(وعاد لصوته غصته)** شمس الظهيرة تنتن اللحم بحرِّها وذبابها، ولن تفعل هذه القوة إلا تمديدنا تحت شمس الظهيرة، صلبنا بلا خفايا في الحر الأبيض والذباب.

غاضت الضحكة في وجه هيرا، وزاد موران القلق في وجه هراري. وبعد هنيهة وجوم قال متنهداً:

- اللعنة. كم تخدعنا أوهام نفوسنا.. **(وصمت لحظة قصيرة، ثم استأنف ودود اللهجة، كئيبها)** هو صلب حقيقي بالفعل. آه.. عندما كنا صغاراً يا داريو كنت أحلم بمعرفة يقينية بكل ما يحيط بنا في الحي، ثم في المدينة، ثم في العالم. وكنت أتصور أن يتغلغل العقل إلى كل الميادين يضيئها بمبادئه ومفهوماته. وأن تنسق جميع النشاطات العقلية، وتتوحد منجزة المنظومة المتكاملة التي تستطيع تحقيق المعرفة المطلقة. كلانا يا داريو كان يتلهف للمعرفة المطلقة، لكنني كنت أشمئز من طريقك معتقداً أنه لن يقود إلا إلى الترهات ولهذا تبعت تصوراتي في الدرب الثاني. ضممت أشتات العلم كلها وكنت واثقاً أن توحيدها.. مفاعلتها وتنسيقها سيقودني إلى انتصاري الساحق. ولكم تشوّفت روحي أوهام الانتصار الساحق عليك، أنت ذو الحظوة والشهرة، والأغاني التي يترنم بها كل الناس، ويكرِّمها الحاكم، ويؤثرها قلب هيرا. آه.. كم تاقت نفسي إلى فض أسرار هيرا وكشف غوامض جمالها! **(وتنهد من جديد)** وهكذا عكفت على علوم الإنسان من نفس وجسم واجتماع السنين الطوال. طورتها، كبحت جموحها، وحصرتها في أخاديد التجريد الدقيق، حتى زاوجتها كلياً بالرياضيات، وكتلتها في ترابط محكم موثوق صانعاً أساس العقل المستقل الذي كنت أبحث عنه. وكانت تخامرني اعتقادات بأنني أبني لسعادة الإنسان، السعادة الأعمق والأثبت.. متغاضياً عن مثيرات الكبرياء والغرور. وهي دون كذب أقوى دوافعي، والغشاوة التي تعميني. **(وسكت، والألم ينهش وجهه. وبعد برهة غمغم)** سعادة الإنسان. آه.. لشد ما تخدعنا الأوهام!

واندفع فيدوس متحمساً:

- العظمة الحقيقية تعشق التواضع أبداً. إنك يا سيد هراري التمجيد السامق للإنسان عبر دورات التاريخ كلها.

وبرقت عينا كورش في شبق، وتوهج خداه متلمساً ناصية الكلام:

- وقد بنيت حقاً السعادة التي كنت تطمح إليها. سعادة أزلية يبتدىء بها عصر جديد للبشرية. (والتهب حماسة) أتعرف يا سيد هراري المغزى العظيم الذي استلهمته من تأمل اختراعك الفذّ؟

سأل هراري ساخراً:

- ماذا يا صاحب السيادة؟

فتابع كورش، والشهوانية تسيل من فمه:

- اختراعك سيصنع عالماً جديداً، نظيفاً وهادئاً ومنظماً. ستنتهي الحروب والنزاعات وانقلابات التاريخ. لأنه سيحقق ببساطة ما كان يطمح إليه التاريخ دائماً. أي توحيد السلطة وتكثيفها في بؤرة واحدة، كلية القوة.. تعرف كل ما تشاء، وتصرِّف الأمور كلها طبقاً لما تشاء.

صاح المستشار، وقد أدهشته الفكرة:

- الاختراع الرائع لا يجدر إلّا بحكمة بعيدة النظر كالتي يبديها مولانا الحاكم.

قهقه هراري بمرارة وقال:

- تريد الاختراع يا سيدي لتعضد حكمك. أليس كذلك؟

فابتسم الحاكم في خبث:

- بل لنرسخ خير العالم. (واتخذ هيئة عاطفية) أنت تحب مدينتك يا سيد هراري. وسيسرك دون شك أن تهزم عدوتها التي تتربص بها الدوائر، وأن تمتد رايتها حتى تشمل الأرض كلها. وعندما تنضوي البشرية تحت

رايتنا، سنعمل جميعاً من علونا، ومجدنا القومي على تنسيق أحوالها وتنظيمها في وحدة منسجمة يسودها السلام والتساوي. ولا أرتاب لحظة أن هذا ما كنت تتوق إليه.

ضحك هراري من جديد، وكان داريو يصغي متهدل الهيئة كباقة من الظلال، فألح كورش قلقاً:

- إنه لوضع دقيق وفاصل، سواء على المستوى القومي أو الإنساني. وأرجو أن تتفهمه جيداً.

استمر هراري يضحك، فنهضت هيرا ونهض معها جمالها الآسر، واقتربت منه متدللة، وهي تقول بصوت محايد غامض:

- منذ البعيد وفي قلبي يتلوى الفضول.

وثب داريو أمامها:

- لا.. (وحاول احتجازها، غير أن قنوطاً مفاجئاً افترس وجهه الذي يتشاحب. **فوقف وكأنه انشلَّ، وبعد قليل تكلم مجمعاً قواه في تفخيم اللهجة**) لا فائدة. حانت اللحظة، ولن أحاول العبث. إنني أرفض أن أتجر. أن أتمعدن. أترك رفضي للتاريخ. وفي هذه الأونة يتوقف تاريخ الإنسان ويُختم. (**ومد يده إلى جيبه، وأخرج علبة صغيرة، فتحها بيد راعشة وتناول منها حبة صفراء**) برشامة الموت الفوري أيها الباقون. مذ انتابني الخوف وأنا مستعد. لقد ولدت في فرح الحياة. وإنني أنصرف حزيناً عندما يقمع التهابها ويجمد. (**ابتلع الحبة وسط تفاجؤ الآخرين**) هيرا.. سأموت وأنا أمجِّد جمالك الذي لن يقدِّر مذاقه سواي. ولو ملكت الجرأة لا تترددي. البرشامة قوية. إنها إحدى مخترعاتك يا هراري. لقد هزمتنا حقاً.. هزمت الحنين والفر... ح (**وتهاوى على الأرض، وقد علقت في شفتيه آخر كلمة**) وإلا نسا...

وخيم وجوم، وذعر في العيون. وكانت الشمس تغرق في البعيد بعد أن

صبغت الأفق بخثرات دمها المغموسة بالصديد. وغيَّم وجه هيرا، بينما تمتم هراري مكلوماً:

- تنبأت الآلة بهذا يا داريو..

وأشاح كورش بباصريه منزعجاً إلى أبعد الحدود، وهمهم:

- بعض الناس يولدون فحسب ليكونوا إزعاجاً وزبداً فارغاً. (بغيظ) أما زالت اللعبة تروقك يا فتاة؟

انحنت هيرا هادئة.. غامضة، وركعت إلى جوار الجثة، وقبلت الجبين الشاحب، ثم اقتعدت الأرض، وراحت تتأمل الوجه الذي ما زال ينطوي على آخر الكلمات.

وقال فيدوس لا مبالياً:

- على العموم كان دوره منتهياً. وأؤكد لك يا سيد هراري أنني كنت مثلك أكره في أعماقي ترهاته وضجته.

فتكلم هراري مرهقاً وساخراً:

- وكنت تؤثر الدرب النافع دربي، وتنتظر متوثب الأمل الاختراع العظيم اختراعي. أليس كذلك؟

- نعم، وأيم الحق.

واغتنم الحاكم هذه السانحة:

- أعتقد أن هذه الحادثة العابرة والتافهة لن تعطل نظرنا في القضية الأساسية (شدد على الكلمات) التي يهتز لأصدائها مصير إنسانية برمتها.

فقال هراري، والسخرية تنحفر أعمق في ملامحه:

- لا شك أنك شيدت أحلاماً واسعة على هذه الآلة.

فابتسم الحاكم:

- ربما. (ثم بلهجة مخادعة) وما دمنا سنشرف عليها كلنا، فلن تكرَّس بالتأكيد إلا للخير الذي نتمناه.

تقوست شفتا هراري في ازدراء، ورمى السؤال:

- ولكن ما الذي ستصنعه يا سيادة الحاكم (وتلكأ مدركاً أهمية ما سيقول) حينما تعلم أنك في قبضة هذه الآلة.

التقت عينا كورش بعيني فيدوس في استفهام وجل:

- ماذا تعني؟

- ماذا أعني؟ (وسهم هراري في فراغ باهت، ثم اتجه نحو داريو المسجّى، وتحدث حزيناً وكأنه يروي أسطورة فاجعة) إلهامك يا داريو جاب الحقيقة. والبارحة فقط حتى نفذ اللحن عبر انسداد الروح والأذن. أجل «ميدوزا تحدث في الحيا». وعندما فهمت، وماج اللحن معنى في نفسي، بكيت لو تصدق حتى ذابت مآقي. (صمت) لقد تغابيت يا صاح عن المصير في هاتي الطامح خلف الغرور. وكان يسيراً من قبل أن أحدث علائم المصير، وأن أتخيل أية ميدوزا هائلة.. رهيبة أفتش عنها لأنصبها بإزاء الحياة. (صمت) السعادة الأزلية.! خديعة النفس الذاتية! البارحة فرغت من إعداد العقل الذي حلمت به منذ الحداثة، ولكن (ضحك بمرارة) أتعرف يا صاح ما الذي حدث؟ كانت لحظة كثيفة وهزلية إلى حد أنني ضحكت خوفاً واشمئزازاً وحزناً. (صمت) إن العقل الذي احتشدت في تركيبه شتى العلوم في ذروة تطورها وارتقائها امتلك وجوداً ذاتياً في اللحظة التي أنجز فيها. وتمايز.. انفصل عن خالقه بلا مبالاة وقسوة ليمارس سيادة مستقلة.. لا تخضع لشيء، وتسير بلا أهواء. بنظام حازم ودقة مريعة. (ارتفع صوته) في قمة اتساق العلوم واتحادها يا

صاح. انشقت الآلة المخلوقة عني، وامتلكت إرادة. إرادة معدنية يحدوها هدف ثابت الملامح، أرعبني وضوحه في عيني الآلة الزجاجتين. (ابتسم متخاذلاً) والهدف ما توقعته يا داريو. إنه السيطرة على الإنسان، على البشرية برمتها. ووسط رعب ساخط مشدوه اندفعت أحاول تفكيكها. لكن.. (وقهقه) يا للمهزلة! (وقهقه) يا لعمى البصيرة! رفض العقل أن يتفكك، واستطاع بإرادته الذاتية أن يشلّ يدي، ويسخر مني موضحاً أن قبضته الآن تتكمش علينا، وتسحقنا جميعاً. (صمت) ثم ابتدأ بعدئذ يستعرض براعته في تحليلي وصياغتي وفق رموزه. وسماني بلغته الثلجية: **«الذي يسحقه انتصاره»**. وأخبرني أنني لن أستطيع الموت رغم رغبتي فيه لأنني أخاف، وسأتحول إلى أوديب عصري يحمل عاره على كتفه، وينوح.. ينوح إلى آخر الدهر.

وتوقف مترمِّد الوجه. واقترب كورش من فيدوس وهمس وجلاً:

- أهي خدعة؟

- ربما، وعلينا أن نحذر.

وتابع هراري بنفس النغم الحزين:

- وفي يأس سألته عنك، ولم يخطىء في شيء يا صاح. حدثني عن يأسك وبرشامتك وموتك. وسيجن الحاكم ومستشاره. هكذا تنبأ.

صرخ كورش:

- المارق الكاذب.

وهدر فيدوس:

- مهرج تافه.

ثم أنذر الحاكم:

- لنسجنه.

فوافق فيدوس غاضباً:

- نعم، ولن يخدعنا.

وضحك هراري متابعاً لا مبالياً:

- وهيرا.. الجمال الكلي. خلف اللامبالاة تستعر رغبة مرمضة وغامضة بمستحيل لا يطال: أن أصير وإياك يا داريو رجلاً واحداً **(وشهقت هيرا)** وسيبيس الجمال. تماماً كما تنبأت يا داريو سيتخرب ويموت.

.... ثم تناهى الضوء للتلاشي، وسالت مدامع الربابة أشد حزناً بينما سكنت كل حركة، حتى صار للمسرح ملمح لوحة صامتة مغبرة، تضج بالتعبير. وبعد هنيهات، انسدل الستار بطيئاً.. حزيناً، وتهامد شهق الربابة وئيداً... وئيداً.

الفهرس